فضائل النبي في القرآن
أو
دلالة القرآن المبين

على

أن النبي أفضل العالمين

لأبي الفضل

عبد الله بن محمد الصديق الغماري الحسني

عفا الله عنه وفرج كربه

وعليه تعليقات للمؤلف

ويليه

النفحة الالهية

في

الصلاة على خير البرية

للمؤلف أيضاً

الناشر

مكتبة القاهرة

لصاحبها: علي يوسف سليمان

شارع الصنادقية . بميدان الأزهر بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

هـذا كتابُ دلالة القرآنِ
أوضحتُ فيه حقائقَ التبيانِ

وجعلتُه وضعاً رصيناً شُيِّدتْ
صفحاتُه بنواصعِ البرهانِ

يُنبيكَ عن قدرِ النبيِّ وفضلِه
بسواطعٍ جاءتْ منَ الفرقانِ

فاقَ الشفا ومواهباً فى بحثِه
وأجادَ فى سبكٍ وحُسنِ بيانِ

واللهَ أرجو سائلاً بكتابِه
ونبيِّه أجراً بلا حُسبانِ

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الكتاب

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، بشيراً ونذيراً . وجعله داعياً إليه بإذنه ، وسراجاً منيراً . اختصه بالقرآن ، المتضمن لقواطع الحجة ، ونواصع البرهان. والمشتمل على حقائق العلوم ، ودقائق العرفان . وميزه بجوامع الكلم ، وفصاحة اللسان وفضله على جميع مخلوقاته ، من ملك وإنس وجان . ختمت به الرسالة ، فسلم من الجهالة وهدى من الضلالة ، وبصر من العماية ، وأرشد من الغواية . فتح الله به أعينا عمياً ، وقلوباً غلفا ، وآذانا صما . فرض على الناس طاعته ، وأوجب عليهم محبته . شرح صدره ، ورفع ذكره ، وأعلى قدره . وخلد شريعته ، وأبقى على وجه الزمان معجزته . فصلى الله وسلم وبارك عليه ، وزاده رفعة ومكانة لديه . ورضى عن آله الأكرمين ، وصحابته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . أما بعد : فهذا كتاب أردت أن أذكر فيه الآيات التى تفيد عظم قدر النبى صلى الله عليه وسلم . وعلو رتبته ، بصريح العبارة ، أو بطريق الإشارة ، أو التضمن ، أو الموازنة ، أو غيرها من الطرق التى نبينها فيما بعد ، بحول الله تعالى .

وقد رأيت فى هذا الموضوع كتاب « المدحة الكبرى من الكلام القديم » فوجدته قد أجاد ، على توسع كبير فى معظمه ، وإعواز كثير فى مواضع منه . وطالما تشوفت إلى تأليف كتاب من هذا النوع ، أخدم به الجناب النبوى . ويكون وسيلة لى عند الله تعالى ، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ومن الخل الوفى . حتى وفقنى الله - وله المنة - إلى إنشاء هذا الكتاب ، الذى أرجو إن تم أن يكون وافياً فى بابه ، جامعاً لخلاصة البحث ولبابه . على إعواز فى المواد ، وعدم الاستعداد . إذ لم يكن لدى حين كتا[illegible]

سوى حاشية الصاوى على تفسير الجلالين (١) . مع تكدر الخاطر ، وتبلبل الفكر ، بهذه المحنة التى ضاقت واشتدت وطالت ، حتى كادت تقضى على كل أمل فى النجاة منها . لولا ثقتى برحمة الله ، وقرب فرجه ، مع إيمانى بصدق وعده ، حيث يقول (فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا) فلا بد من يسر بعد هذا العسر ، ومن فرج يعقب هذه الشدة . والله المسئول أن يقبل هذا ويجعله سبباً فى التعجيل بالفرج والتيسير ، إنه قريب مجيب ، وهو على ما يشاء قدير .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الأكرمين .

هذه تعليقات على كتاب (فضائل النبى فى القرآن) تتمم مباحثه ، وتشرح بعض ما غمض فيه ، وهى وسط بين الإيجاز والإطناب . وفقنا الله فيها لإصابة الصواب .

(١) ثم تيسر لى بعد تسويده الاطلاع على تفسيرى الكشاف والبيضاوى . فنقلت منهما أثناء تبييضه ما يراه القارىء فى مواضعه منه .

مقدمة

تخصيص النبي صلى الله عليه وسلم بإتيانه القرآن العظيم ، تشريف يفوق ما أوتى النبيون من كتب ومعجزات . إذ كان ما أوتوه عليهم السلام ، لا يعدو أن يكون خارقاً من الخوارق ، ينتهى بانتهاء زمنه . أو تشريعات ووصايا ، تختص بقبيل من الناس ، لا تجاوزهم إلى غيرهم . أما القرآن : فهو معجزة الدهر ، وكتاب الزمن ، ودستور الحياة ، فى شتى نواحيها ، يعلم الإنسانية ، ويأخذ بيدها إلى حيث رقيها وسعادتها . يصحح ما أخطأ فيه كبار الفلاسفة والمفكرين ، من الحقائق الكونية . ويقوم ما انحرف عنه زعماء المتدينين ، من العقائد الدينية . يساير التقدم العلمى ويدعو إلى تحرير الفكر والعقل من أغلال التقليد ، وأوهام الجمود . أسس من النظم والقوانين ، ما لم يصل إليه فقهاء التشريع فى القديم والحديث . وسن مناهج للأخلاق وآدب السلوك ، قصرت عنها أنظار علماء الاجتماع فى أرقى الأمم حضارة ، فى شرق الأرض وغربها . يضاف إلى هذا فصاحة أسلوبه . وسلاسة ألفاظه وتراكيبه ، وروعة تصويره ، وأخذه بمجامع القلوب ، وامتلاكه للنواصى والألباب . وإنك لتجد البون شاسعاً بينه وبين سائر الكتب[1] المنزلة ، القديم منها والجديد . فإذا وازنت التوراة ـ وهى كتاب العهد القديم ـ بأسلوبها وأحكامها وتعاليمها ووصاياها وما فيها من قصص وتواريخ ، بسورة من سور القرآن . أدركت الفارق الكبير بين الكتابين . ! وكأنك بهذه الموازنة تقيس نور شهاب من تلك الشهب التى تعترض فى الأفق لامعة ، ثم تنطفىء ، لا يكاد يشعر بها أحد ، إلا من كان يرصد حركاتها لغرض من الأغراض . بنور الشمس الذى يضىء

---

(1) وهى غير معجزة ، كما صرح به الزمخشرى فى الكشاف . إذ الإعجاز خاص بالقرآن من بين سائر الكتب السماوية . على أن الإنجيل عبارة عن مواعظ ووصايا ألقاها عيسى عليه السلام على أتباعه ، عقب نزولها عليه . من غير أن تدون فى كتاب . والأناجيل الموجودة عند المسيحيين . من تأليف بعض الحواريين كتبوا فيها سيرة عيسى بعد رفعه بمدة طويلة ، ولهذا يوجد بينها تناقض واختلاف .

الدنيا ، ويبعث الحرارة فى الكون ، ويسرى مع شعاعه الحياة والنضج . ويذهب ظلام الليل ، وما حواه من ظلمات وأوهام .

ومن هنا قال الله تعالى لنبيه - يمتن عليه - (ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم) أى خصصناك بهذا الكتاب ، وشرفناك به ، وذخرناه لك . ولم ننزله على إبراهيم وموسى وعيسى ، لأنهم - وإن كانوا رسلا مكرمين - لم يصلوا إلى رتبتك ، ولاحاموا حول منزلتك ، وقال تعالى (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) .

قال الزمخشرى : أو لم يكفهم آية مغنية عن سائر الآيات ، إن كانوا طالبين للحق غير متعنتين . هذا القرآن الذى تدوم تلاوته عليهم فى كل مكان وزمان ، فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضمحل ، كما تزول كل آية بعد كونها ، وتكون فى مكان دون مكان . إن فى مثل هذه الآية الموجودة فى كل مكان وزمان ، إلى آخر الدهر ، لرحمة لنعمة عظيمة لا تشكر (١) ، وتذكرة لقوم يؤمنون اه فإذا نظرنا إلى ما فى القرآن من دلائل خاصة ، تقتضى علو قدره عليه الصلاة والسلام . مضافاً إلى ما سبق . انتهينا إلى نتيجة ذات وجهين متلازمين :

« أحدهما » أنه عليه الصلاة والسلام أفضل المخلوقات يقينا لا يدخله احتمال ، إذ ليس من المعقول أن ينزل ذلك الكتاب العظيم على شخص يكون فى عالم الوجود من هو أفضل منه .

« ثانيهما » القطع بخطأ من فضل عليه الملائكة ، وهو ابن حزم . أو فضل عليه جبريل عليه السلام وهو الزمخشرى . لأن القرآن بجملته وتفاصيله ، تشريف لم ينله ملك ولا رسول . ولأن فى آياته وبعض سوره ، ما يفيد تفرد النبى صلى الله عليه وسلم بمناقب لم يعطها جبريل عليه السلام .

وإيضاح هذه النتيجة بوجهيها هو مقصدنا من هذا المؤلف الذى اعتمدنا فيه على فضل الله . وعلى ما يفتح به فى فهم آيات كتابه . وهو مما منحناه فى هذه المحنة التى نرجو

---

(١) أى لا يقدر على شكرها . لعظم النعمة بها عظماً يجل عن الشكر .

من الله تفريجها عاجلا . بقى وجه ثالث ، يلحق بالوجهين السابقين ، وهو : أن المفاضلة بين بقية الأنبياء والملائكة ظنية ، لأنها لا تستند لدليل قاطع . فنحن نعتقد أن الأنبياء عليهم السلام ، أفضل من الملائكة ، ولكن لا نقطع بذلك ولا نجزم به ، كما لا نقطع بخطأ من فضل عليهم الملائكة . وهم ابن حزم والمعتزلة وكثير من الأشعرية ، منهم الإمام الرازى فى بعض كتبه ، لأن بعض الأدلة يقتضى ذلك ، مثل قوله تعالى . (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون) فهذه الآية تفيد أفضلية الملائكة على عيسى عليهم السلام ، وإن أجاب عنها علماء الأشعرية[1] . وأمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام ، يقتضى أفضليتهم عليه ، كما استنبطه بعض علماء المالكية ، حسبما بينته فى قصة آدم عليه السلام . فالقطع بتفضيل أحد الطرفين على الآخر ، لا يمكن . وإنما هو ظن غالب ، يتجه إلى هذا الجانب أو ذاك ، وقد نص الأشعرية وغيرهم على هذا ، لكن لم يصرحوا بأن أفضلية النبى صلى الله عليه وسلم قطعية فيما أعلم . ولعلهم لم يتفطنوا لما أثبتناه فى هذا الكتاب ، إلا أن الإمام الرازى لما حكى الخلاف فى المفاضلة . ورجح تفضيل الملائكة ، استثنى النبى عليه الصلاة والسلام من الخلاف ، وقال : إنه أفضل من الملائكة وغيرهم بلا نزاع ، فقد يفهم منه أن أفضليته عليه الصلاة والسلام قطعية ، وفى الجوهرة :

وأفضل الخلق على الإطلاق نبينا فمل عن الشقاق .

هذا . ومن الشذوذ بمكان ، ما نقله العارف الشعرانى فى الباب الرابع عشر من المنن الكبرى ، حيث قال : وقع فى سنة إحدى وأربعين وتسعمائة أن شخصاً زعم أن إبراهيم أفضل من النبى صلى الله عليه وسلم ، مستنداً إلى تعليمه عليه الصلاة والسلام للصحابة الصلاة الإبراهيمية ، حين سألوه : كيف نصلى عليك ؟ بناء على قاعدة أهل المعانى من أن المشبه به أعلى من المشبه ، ثم قال — بعد كلام فى الرد عليه — : وقد انتصر علماء

---

(١) والذى أعتقده فى خاصة نفسى — وهو الصواب إن شاء الله — أن الملائكة أفضل من الأنبياء غير إبراهيم وموسى عليهم السلام . أما الأول فإن الله تعالى اختصه بالخلة . وأما الثانى فإن الله تعالى كلمه تكليما . وبذلك كانا أفضل من الملائكة .

مصر . وصنفوا فى الرد على هذا الشخص — بتقدير ثبوت ذلك عنه — كسيدى محمد البكرى ، وسيدى محمد الرملى ، وناصر الدين الطبلاوى ، والشيخ نور الدين الطندتائى وقرئت تلك المصنفات على رؤوس الأشهاد ، بحضرة خلائق لا يحصون . قلت : يظهر أن ذلك الشخص كان ضعيفاً فى علم المعانى . إذ من المقرر فيه أن الغرض من التشبيه إلحاق الأدنى بالأعلى نحو زيد كالبدر . أو إلحاق متأخر بسابق فى معنى من المعانى ، من غير ملاحظة تفاوت بينهما فيه ، والصلاة الإبراهيمية من هذا القبيل . إذ أن معناها : اللهم صل على محمد كما حصلت منك الصلاة على إبراهيم . وليس هنا أدون ولا أعلى . لأن الصلاة على إبراهيم منشؤها نبوته ، لا أفضليته . ونظيرهذا قوله تعالى . (وعدالله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) شبه الله فى هذه الآية استخلاف الأمة المحمدية باستخلاف اليهود قبلهم من غير نظر إلى التفاوت بين الاستخلافين مع أن استخلاف الأمة المحمدية — وهى المشبه — أعم وأكمل من استخلاف اليهود المشبه بهم ، وهذا واضح لاخفاء فيه . فاستشكال التشبيه فى الصلاة الإبراهيمية ، أوأخذ أفضلية إبراهيم منه ، ناشىء عن ضعف فى علم المعانى ، أونسيان لقواعده . وحكى الشعرانى أيضاً فى طبقات الأولياء عن العارف أبى المواهب الشاذلى . أنه قال : وقع بينى وبين شخص من الجامع الأزهر ، مجادلة فى قول صاحب البردة :

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

وقال : ليس له دليل على ذلك . فقلت له : قد انعقد الإجماع على ذلك ، فلم يرجع . فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم ، ومعه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، جالساً عند منبر الجامع الأزهر . وقال لى : مرحباً بحبيبى . ثم قال لأصحابه : أتدرون ما حدث اليوم ؟ قالوا : لا يارسول الله . قال : إن فلاناً التعيس ، يعتقد أن الملائكة أفضل منى . فقالوا بأجمعهم : ما على وجه الأرض أفضل منك ، فقال لهم : فما بال فلان التعيس ، يعتقد أن الإجماع لم يقع على تفضيلى ؟ ! أما علم أن مخالفة المعتزلة لأهل السنة ، لا تقدح فى الإجماع ؟ ! قلت : وقع من بعض المتحذلقين أقبح من هذا فقد رأى تأليفى « الأحاديث المنتقاة فى فضائل سيدنا رسول الله » ، وهو كتاب انتقيته من الأحاديث الصحيحة ، فاستعاره منى ، ولما رده بعد قراءته ، قال لى : أنت إمام فى تأييد الخرافات . فاعتبر

الأحاديث الصحيحة الثابتة فى فضل النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى ذكر بعض معجزاته خرافات ، وهذا مما دعانى إلى التعجيل بتأليف هذا الكتاب الذى سميته (دلالة القرآن المبين . على أن النبى أفضل العالمين) وسيجد القارىء فيه ما يجدد إيمانه ، ويقوى عقيدته ويفحم به مناظره إن كان لا يقنعه الإجماع ، ولا يلتزم السنة . ويجب أن أشير إلى أمرين هامين :

« الأول » قد يظن بعض الناس أن أفضلية النبى صلى الله عليه وسلم ، ليست ذات أهمية فى الدين ، وهذا خطأ كبير ممن يظنه ، بل لها أهمية كبرى ، لأن تصحيح العقيدة يتوقف عليها ، لاسيما فى هذا العصر الذى كثر فيه الجهل بالدين أصوله وفروعه . ولقد سئل بعض أهل العلم مرة : ما الدليل على أن النبى صلى الله عليه وسلم أفضل من نوح عليه السلام ؟ مع أن نوحاً لبث يدعو إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً ، بنص القرآن فلم يسعفه علمه بدليل . وقال لى بعض الصحفيين مرة : أنا أعتقد أن عيسى أفضل من النبى عليهما الصلاة والسلام . قلت : لم ذلك ؟ قال : لأن عيسى ولد من غير أب ، فلم يكن من النطفة المستقذرة . قلت له : فعلى هذا تكون ناقة صالح عليه السلام أفضل من عيسى أيضاً . لأنها خرجت من صخرة ، ولم تخرج من الفرج الذى هو مخرج البول ! ولو كان التفضيل منوطاً بهذا ، كان آدم عليه السلام أفضل الرسل على الإطلاق ، لأنه خلق من غير أب ولا أم ، فلم تقذفه نطفة ، ولا ضمه رحم . ولأنه عاش ألف سنة ، كما فى الصحيح ، دعا فيها أولاده إلى الله تعالى . ولكن التفضيل فى الحقيقة ، منوط بخصال الكمال التى يتحلى بها النبى ، مع المزايا التى يهبها الله تعالى له . على هذا الأساس يتفاضل الرسل والأنبياء وغيرهم ، وهذا الأساس نفسه ، هو مبنى أفضلية النبى صلى الله عليه وسلم . أما خصال الكمال التى كان يتحلى بها فينبىء عنها قول الله تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم) ولم يثن بهذا على نبى ولا رسول . فأفاد أنه متفرد بهذا الخلق . وسئلت عائشة رضى الله عنها : كيف كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : كان خلقه القرآن . ومعنى هذا الجواب الوجيز الجامع : أن ما فى القرآن الكريم من أخلاق وآداب وفضائل ومكارم يتمثل فى شخصه عليه الصلاة والسلام . ولذا قال البوصيرى رحمه الله تعالى :

فاق النبيين فى خلق وفى خلق ولم يدانوه فى علم ولا كرم

وأما المزايا التى وهبه الله إياها فكثيرة . مثل دفاع الله عنه ، ونداله بوصف النبوة والرسالة ، ونهى المؤمنين أن ينادوه باسمه المجرد ، وتجنيد الملائكة للقتال معه، وإنذارهم على لسانه ، وعموم بعثته ، وختمه للنبوة ، وإقسام الله بحياته ، وغير ذلك مما يتحدث عنه هذا الكتاب .

ولا شك أن إثبات هذه المزايا ، وتلك الأخلاق له صلى الله عليه وسلم ، واعتقاد اتصافه بها ، واجب شرعاً . تتوقف عليه صحة عقيدة المسلم ، كما صرح به العلماء . لأن كتاب الله تحدث بها فى صراحة ووضوح . بله السنة المتواترة والإجماع عليها من الأمة بجميع فرقها . وهذا معنى أفضليته عليه الصلاة والسلام . لأننا نعلم أنه لا يوجد نبى ولا رسول ولا ملك جمع هذه الصفات كلها غيره . وإذاً فلا يوجد من يساويه ، فضلا عن أن يفوقه . ومن هنا قطعنا بأفضليته عليه الصلاة والسلام ، كما قطعنا بخطأ من فضل الملائكة أو الرسل عليه ، وهو — أعنى من فضل ملكاً أو رسولا عليه — إما متناقض لاعتقاده ثبوت معنى الأفضلية له صلى الله عليه وسلم ، مع إثبات لفظها لغيره. وإما غافل عن أن ثبوت المعنى لشىء ، يلزمه ثبوت اللفظ لذلك الشىء ، ضرورة أن اللفظ لازم للمعنى وتابع له .

(الثانى) قد يقال : جاءت أحاديث تفيد عدم أفضلية النبى صلى الله عليه وسلم ، وهى قوله عليه الصلاة والسلام — لمن قال له : يا خير البرية — (ذاك إبراهيم[1]) وقوله عليه الصلاة والسلام . لا تفضلونى على يونس ، وقوله صلى الله عليه وسلم (يصعق الناس فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش بالعرش فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقته يوم الطور) وقوله عليه الصلاة والسلام — من حديث — (فعرفت فضل علمه بالله على) يعنى جبريل عليه السلام . ولنا فى الجواب عن هذه الأحاديث مسلكان :

---

(١) هذا الحديث يفيد أنه أفضل الخلق بعد نبينا صلى الله عليه وسلم . ثم يليه موسى عليهما السلام .

(الأول) الترجيح . وذلك أن الأحاديث المذكورة أخبار آحاد ، والأفضلية ثابتة بالقرآن والسنة المتواترة والإجماع ، فتكون راجحة بلا نزاع .

(الثانى) الجمع . وهو من وجهين :

(أحدهما) أن تلك الأحاديث خرجت مخرج التواضع ، مع الإشارة إلى حفظ رتبة يونس عليه السلام ، حتى لا يتسرب إلى النفوس ما يغض من مقامه الكريم ، بالنسبة لما حصل له ، على أن حديث الصعق لا علاقة له بالأفضلية ، لأن موسى عليه السلام إن كان لا يصعق يوم القيامة ، مجازاة له بصعقة يوم الطور ، فالأمر واضح . وإن كان يصعق ويفيق أول واحد فتلك ميزة حقاً ؟ يقابلها من جانب النبي صلى الله عليه وسلم فى ذلك اليوم مزايا : أهمها الشفاعة العظمى التى يتأخر عنها موسى نفسه ، ويتقدم لها نبينا صلى الله عليه وسلم . تتلوها شفاعات منه مقبولة . حتى يقول له مالك خازن النار : ما تركت لغضب ربك فى أمتك من بقية . وحتى يناديه ربه : أقد رضيت يا محمد؟ فيقول : أى رب رضيت . ثم تقدمه لباب الجنة يستفتحها ، فيقول له خازنها : بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك .

(ثانيهما) أن تلك الأحاديث صدرت من النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يعلمه الله بأفضليته عنده . بيان ذلك : أن الله تعالى والى إفضاله على نبيه وقتاً بعد وقت ، ولحظة بعد لحظة . فكان أول ما قال له فى الإنذار (وأنذر عشيرتك الأقربين) ثم (ولتنذر أم القرى ومن حولها) ثم (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) ثم صرف إليه الجن ، وبعثه إليهم أيضاً . ثم عمم بعثته فقال (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) ثم أسرى به وأراه من آياته ، مازاده رفعة وعلواً . ثم لما أمره بالجهاد أمر الملائكة بأن يجاهدوا معه ، ويكونوا من جنده . وهكذا كلما مرت على النبي صلى الله عليه وسلم لحظة ، زاد فى نفسه فضلا ، ونال من مولاه موهبة وكلما نزلت عليه آية أو سورة ، ازداد بها علماً وقرباً . فكان علمه بأفضليته على المخلوقات ، متأخراً عن صدور تلك الأحاديث منه . وقد قال صلى الله عليه وسلم بعدها (أنا سيد ولد آدم) وقال أيضاً (رأيت ربى - يعنى فى المنام - فى أحسن صورة ، فقال : يا محمد ،

قلت : لبيك رب وسعديك ، قال : فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا أدرى يا رب ، فوضع يده بين كتفى حتى وجدت بردها فى صدرى، فتجلى لى كل شىء وعرفت) الحديث وهو صريح فى أن الله تجلى عليه بصفة العلم ، فكشف له عن كل معلوم ، وبناء عليه يكون أعلم من جبريل عليه السلام[1] ولما شمس البراق حين أراد النبى صلى الله عليه وسلم ركوبه ليلة الإسراء ، قال له جبريل : أبمحمد تفعل هذا؟ فوالله ماركبك أحد أكرم على الله منه ، فارفض البراق عرقاً . وجبريل ركب البراق مع الأنبياء ، فهذه شهادة منه بأن النبى صلى الله عليه وسلم أفضل منه ومن الأنبياء عليهم السلام .

(تنبيه) حديث (فعرفت فضل علمه بالله على) رواه البزار من حديث أنس ، وفى محفوظى أن إسناده ليس على شرط الصحيح . وبقية الأحاديث المذكورة كلها صحيحة ، وبالله التوفيق .

---

(١) هذا الحديث يرد ما أفاده كلام الغزالى فى أواخر كتاب التفكر من الإحياء . من أعلمية الملائكة المقربين على النبى صلى الله عليه وسلم . حيث قال ـ أثناء بيان تفاضل المخلوقات فى العلم ـ وكل ما عرفناه قليل نزر حقير . بالإضافة إلى ما عرفه جملة العلماء والأولياء . وما عرفوه قليل نزر حقير . بالإضافة إلى ما عرفه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وما عرفوه قليل بالإضافة إلى ما عرفه محمد صلى الله عليه وسلم . وما عرفه الأنبياء كلهم قليل بالإضافة إلى ما عرفه الملائكة المقربون . كإسرافيل وجبريل وغيرهما ا هـ . وهذا خطأ لا ندرى كيف وقع فيه ؟ وقد رد عليه القطب الكبير عبد العزيز الدباغ فى كتاب الإبريز .

١ – « سورة البقرة »

قال الله تعالى (ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك) الآية . جعل الله الإيمان بما أنزل إليه ، شرطاً فى حصول التقوى ، وركناً للهداية والفلاح . وقدمه على الإيمان بما قبله من الكتب ، إشعاراً بأن الإيمان به أصل للإيمان بها .

وقال سبحانه (وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس) أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء) يعنونهم . قال الله تعالى (ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) دافع الله عن صحابة نبيه عليه الصلاة والسلام بهـــذه الجملة المؤكدة بعدة تأكيدات ، ولم يفعل ذلك مع أصحاب نبي قبله . انظر إلى قوم نوح عليه السلام ، لما قالوا له (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) يحتقرون أصحابه المؤمنين ، أجابهم نوح (قال وما علمى بما كانوا يعملون . إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون) تدرك من هذا أن الله تعالى ما دافع عن أصحاب نبيه إلا لكرامته عليه .

وقال جل شأنه (ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون) نزلت هذه الآية رداً لقول عبد الله بن صوريا أحد أحبار اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم : ما جئتنا بشيء . ونذكر لهذه المناسبة أن الله تعالى تولى الدفاع عن نبيه فيما وجه إليه من تهم . فما من تهمة أو نقيصة رماه بها المشركون أو اليهود أو النصارى إلا ردها الله عليهم أبلغ رد . بالتأكيد تارة . وبالقسم أخرى ، وبغير ذلك مما يقتضيه فن البلاغة ، كانبينه فى مواضعه إن شاء الله تعالى . وفى هذه الآية عدة مؤكدات : اللام الموطئة للقسم والتقدير : والله لقد أنزلنا . وقد التى تفيد التحقيق ، ووصف آيات ببينات ، إشارة إلى أنه لا يصح إنكارها ، لوضوحها . وجملة (وما يكفر بها إلا الفاسقون) التى تفيد حصر الكفر بها فى اليهود ، مع وصفهم بالفسق . وهذا مما خص الله به رسوله عليه الصلاة والسلام وفضله به على سائر رسله الذين تركت لهم مهمة الدفاع عن أنفسهم فيما اتهموا به فقال نوح يدافع عن نفسه (يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من

رب العالمين) وقال هود (يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين) وقال موسى – يرد على فرعون اتهامه بالسحر – (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبورا) وهكذا بقية الأنبياء عليهم السلام . فاحفظ هذه القاعدة التي يتبين بها علو رتبة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد قلت في الاستغاثة مشيراً إليها :

نبي تولى الله عنه دفاعه وخيب قوماً قد رموه بجنة

وقال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظـــرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم) هذه الآية – كسابقتها – دافع الله بها عن نبيه . ذلك أن الصحابة أو الأنصار منهم كانوا في مخاطبتهم للنبي صلى الله عليه وسلم يقولون له : راعنا . أي اصغ إلينا ، وارعنا سمعك . فقالها اليهود ، وأرادوا بها شتمه بالرعونة ، وهي الحمق . فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة ، وأمرهم باستعمال كلمة انظرنا التي لا تحتمل تورية ولا غشاً . والقصد بهذا حماية مقام النبي صلى الله عليه وسلم حتى لا يمس بسوء ، ولو بطريق التورية والإيهام .

وقال تعالى (وقال الذين لا يعلمون) مشركو مكة (لولا يكلمنا الله) أنك رسوله (أو تأتينا آية) على رسالتك . قال تعالى يسلي رسوله (كذلك قال الذين من قبلهم) من كفار الأمم السابقة لأنبيائهم (مثل قولهم) من التعنت وطلب الآيات (تشابهت قلوبهم) في الكفر والعناد (قد بينا الآيات لقوم يوقنون) ثم قال تعالى مؤكدا إثبات رسالة نبيه (إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) لم لم يؤمنوا؟ فإنما عليك البلاغ ؛ وقد بلغتهم ما كلفناك به ؛ وعلينا حسابهم . وفي قراءة بجزم فعل تسأل المبني للمعلوم ؛ بلا الناهية ؛ ومعناها : لا تسأل عن أصحاب الجحيم ما لهم عندنا من العذاب ؟ فإن عذابهم عندنا شديد لا يوصف . أو : لا تسأل عن أصحاب الجحيم ؛ مستشفعاً لهم ؛ لأن العذاب حق عليهم بكفرهم ؛ وجاء في حديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (ليت شعري ما فعل أبواي ؟) فنزل قوله تعالى (ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) نهاه عن السؤال عنهما ؛ لأنهما من أهل النار . وهذا الحديث مرسل ضعيف ؛

وسياق الآية يؤكد ضعفه وسقوطه . والأبوان الشريفان من أهل الفترة ؛ وهم ناجون كما بينته فى « خواطر دينية » .

وقال تعالى - يحكى دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يبنيان البيت الحرام - (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) فأجاب الله دعاءهما بالنبى صلى الله عليه وسلم . وفى الحديث الصحيح عن العرباض بن سارية ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنى عبدالله وخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل فى طينته وسأخبركم عن ذلك دعوة أبى إبراهيم وبشارة عيسى) الحديث ، وهو الخامس من الأحاديث المنتقاة . وهذه الآية الكريمة تفيد علم إبراهيم وإسماعيل بنبينا وبصفاته ، لأن الله تعالى أخبرهما به ، وأخذ عليهما الميثاق ، كما اخذه على بقية الأنبياء . وكان دعاؤهما بشارة به ، سجلاها فى صورة توجّه إلى الله وتضرع إليه ، بتحقيق وعده ، ولا يخفى ما فى هذا من التنويه بعلو مقامه عليه الصلاة والسلام .

وقال تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) خياراً عدولا (لتكونوا) يوم القيامة (شهداء على الناس) الأمم السابقة أن رسلهم بلغتهم الدعوة (ويكون الرسول عليكم شهيداً) أنه بلغكم . خص الله الأمة المحمدية بهذه الفضيلة ، إكراماً لنبيه صلى الله عليه وسلم . قال كعب : أعطى الله هذه الأمة ثلاث خلال ، لم يعطهن إلا نبيا مرسلا : كان يقول لكل نبى : أنت شاهدى على خلق ، وقال لهذه الأمة (لتكونوا شهداء على الناس) وكان يقول : ما عليك من حرج ، وقال لنا (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج) وكان يقول : ادعنى أستجب لك ، وقال لنا (أدعونى أستجب لكم)

كان النبى صلى الله عليه وسلم يتطلع إلى السماء ، ينتظر الوحى ، متمنياً تحويل القبلة إلى الكعبة . لأنها قبلة أبيه إبراهيم ، ولأن التوجه إليها أدعى لإسلام العرب . فأنزل الله تعالى عليه (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام) الآيات . فأعطاه ما كان يتمناه ، من غير أن يسأله إياه . وهذا من كمال عنايته به ، وشدة رعايته له ؛ ولم يحظ رسول قبله بمثل هذه العناية .

ثم أخبر تعالى أن نبيه معروف لأهل الكتاب بصفاته ومميزاته ، معرفة ليس فيها شك ولا ارتياب (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه) محمداً (كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق) نعت محمد فى كتبهم (وهم يعلمون) أن الحق ما كتموه حملهم على كتمانه الحقد والحسد .

ثم قال تعالى ممتناً على المؤمنين بإرسال نبيه (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) وفى هذا تنويه كبير بقدر نبينا صلى الله عليه وسلم .

ثم قال تعالى (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق) بالصدق (وإنك لمن المرسلين) هذه الآية رد لقول الكفار له : لست مرسلا . ولذا أكدت بثلاثة مؤكدات : إن ، واللام (وإيرادها جملة اسمية) وهى تدل على الثبوت والاستقرار . أى إن كونك من المرسلين ثابت مستقر ، وهذا غاية ما يطلب فى رد قول المنكرين لرسالته عليه الصلاة والسلام . لكنه تعالى زاد على هذا فأثبت أفضليته على المرسلين فقال سبحانه (تلك الرسل) الإشارة إلى الرسل المذكورين من أول السورة وهم،نبينا المبدوء به فى مفتتحها وآدم وإبراهيم وإسماعيل وموسى وإسحاق ويعقوب وداود وسليمان وعيسى عليهم الصلاة والسلام (فضلنا بعضهم على بعض) بتخصيصه بمزية ليست لغيره (منهم من كلم الله) كموسى بنص القرآن،وآدم بظاهره وصريح الحديث (ورفع بعضهم[1] درجات)

---

(١) قال الزمخشرى : والظاهر أنه أراد محمدا صلى الله عليه وسلم . لأنه هو المفضل عليهم حيث أوتى مالم يؤته أحد ، من الآيات المتكاثرة المرتقية إلى ألف آية أو أكثر ، ولو لم يؤت إلا القرآن وحده . لكفى به فضلا منيفاً على سائر ما أوتى الأنبياء . لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر . دون سائر المعجزات . وفى هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره . ما لا يخفى . لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذى لا يشتبه . والمتميز الذى لا يلتبس . وتجويز أن يراد به إبراهيم ومحمد وغيرهما من أولى العزم من الرسل ، بعيد . لأن أحداً منهم لم يؤت مثل ما أوتى نبينا صلى الله عليه وسلم ، الا ترى أن الآية خصت الكليم وعيسى بالذكر . لما أوتيا من الآيات العظيمة. والمعجزات الباهرة. قال الزمخشرى: فلما كان هذان النبيان قد أوتيا ما أوتيا من عظام=

هو نبينا صلى الله عليه وسلم ، كنى عنه ببعضهم تفخيما لشأنه ؛ وإشارة إلى أنه المعروف عند الإبهام ، لا يقصد غيره ، ولا يشار إلى سواه . ونكر درجات ، إشارة إلى كثرة ما أعطى منها كآياته القرآن ، وتفضيل أمته ، وجعل الأرض لهم مسجداً وطهوراً ، ويسر أحكام دينه ، وخلوها من الحرج ، وإرساله رحمة للعالمين . إلى غير ذلك مما لم يعط لنبي ولا رسول . وعبر برفع إشارة إلى رفعة رتبته على بقية الرسل .

وقال سبحانه (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) يؤخذ من هذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم حى فى قبره الشريف ، يحارب المرابين بالدعاء عليهم ، أو بما يناسب حياته البرزخية ، وهذا إلى محاربته لهم فى حياته الدنيوية . وكما أن الله تعالى يحاربهم بمحق مكاسبهم . وإذهاب بركتها ، فإن رسوله يحاربهم بالدعاء عليهم بذلك . وأشرت إلى هذا الاستنباط فى الاستغاثة بقولى .

وفى آية الربا دليل حيـــاته   دواماً بلا ثنيا إلى يوم نفخة

وقوله تعالى (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون) الآيتين إلى آخر السورة . ادخرها الله لنبينا صلى الله عليه وسلم ،فأنزلهما من كنز تحت العرش . وصح عنه عليه الصلاة والسلام : أن من قرأهما فى ليلة كفتاه .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة فى نزول (آمن الرسول : ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) قال الله : نعم ، وفيه عن ابن عباس : قال الله : قد فعلت . قلت : معنى الحديث بروايتيه أنه لما نزلت (آمن الرسول) على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقرأها ، قال الله له عند قراءة كل دعاء فيها : نعم ، قد فعلت . وهذا دليل على أن الله رفع عن هذه الأمة الحرج والخطأ والنسيان ، إكراماً لنبيها صلى الله عليه وسلم ، وسيأتى قوله تعالى فى صفة نبيه (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) وقال صلى الله

= الآيات .خصا بالذكر فى باب التفضيل ، وهذا دليل بين أن من زيد تفضيلا بالآيات منهم فقد فضل على غيره.. ولما كان نبينا صلى الله عليه وسلم هو الذى أوتى منها ما لم يؤت أحد فى كثرتها وعظمها . كان هو المشهود له فى هذه الآية بإحراز قصبات الفضل من غير مدافع .

عليه وسلم (إن الله تجاوز لى عن أمتى الخطأ والنسيان والأمر يكرهون عليه) وهو حديث صحيح ، بينت طرقه فى تخريج أحاديث منهاج البيضاوى . وقال تعالى (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم) وقال سبحانه (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم) وكانت الأمم السابقة تؤاخذ بهذه الأشياء ، تشديداً عليهم ، لشططها فى طلب الآيات ، كما قص الله تعالى عن بنى إسرائيل ، وأخبر بأن التشديد عليها كان جزاء ذلك الشطط منها ، ولم يحصل شىء من ذلك لهذه الأمة والحمد لله .

٢ ـ « سورة آل عمران »

قدم وفد نصارى نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا نراك تسب صاحبنا قال (من هو ؟) قالوا : عيسى ابن مريم ، تزعم أنه عبدالله : قال (أجل إنه عبد الله ورسوله) (قالوا : فهل له مثل من الخالق ؟ خلق من غير أب : فأنزل الله تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين) ثم أمره أن يباهلهم (فمن حاجك فيه من بعدما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) بأن نقول: لعن الله الكاذب منا فى شأن عيسى . فطلبهم عليه الصلاة والسلام للمباهلة ، وخرج ومعه على وفاطمة والحسن والحسين . وقال (إذا دعوت فأمنوا) فعلم الوفد أنه نبى ، وخافوا من مباهلته ، وصالحوه على دفع الجزية ، ورجعوا .

هذا نوع من دفاع الله عن نبيه ، وهو تلقينه ما يقول لخصومه ومناظريه ، مع أنه أفصح الخلق ، وأعلمهم بطرق الحجاج ، وأقواهم على إفهام الخصم . ولكن الله تعالى يحب أن يظهر عنايته ، بمختلف الأساليب مما يأتى فى مواضعه .

زعم اليهود والنصارى أنهم على دين إبراهيم عليه السلام ، فرد الله تعالى عليهم بقوله (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين . إن اولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه) فى زمانه (وهذا النبى) عليه السلام (والذين

آمنوا) من أمته ، ويلاحظ أن الله تعالى ذكر إبراهيم باسمه المجرد ، ولم يذكر نبينا كذلك بل ذكره بوصف النبوة ، وفى هذا فضيلة عظيمة له صلى الله عليه وسلم ، نوه عنها العلماء كما قال الحافظ السخاوى فى القول البديع ، وقال سبحانه (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم) من الكتاب والحكمة ، هو النبي صلى الله عليه وسلم (لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) هذا تكريم كبير من الله لنبيه بأخذ الميثاق على الأنبياء أن يؤمنوا به وينصروه إن ظهر فى زمانهم . قال التقى السبكى : ويؤخذ منه أن النبي صلى الله عليه وسلم نبي الأنبياء . وقال البوصيرى :

فإنه شمس فضل هم كواكبها يظهرن أنوارها للناس فى الظلم

قلت : ذهب جمع من المفسرين إلى أن معنى الآية : أن الله أخذ الميثاق على كل نبي فى النبي الذى يأتى بعده ، فأخذ العهد على آدم إن جاء رسول مصدق لما معه ، آمن به ونصره . وأخذ العهد على إدريس . ونوح . وهود . وصالح . وهكذا إلى عيسى عليهم السلام .

وهذا التفسير ـ وإن قال به سعيد بن جبير وطاوس ـ غلط ، لا يصح اعتماده . والتفسير الذى ذكرناه أولا ، هو الذى لا يجوز غيره . وبيان ذلك من وجوه :

الأول : أنه لم يرد فى آية ، ولا فى حديث صحيح . أن الله تعالى أخذ العهد فى شأن نبي غير نبينا صلى الله عليه وسلم .

الثانى : أن القرآن لم يصف نبياً بأنه مصدق لما بين يديه ، أو مصدق لما مع الأنبياء قبله ، غير نبينا عليه الصلاة والسلام ، ولم يوصف كتاب بأنه مصدق لما بين يديه ، غير القرآن . قال تعالى (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا (قل من كان عدوا لجبريل) الآية . ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب . وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه . . وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه) وانظر كيف قال الله تعالى فى عيسى عليه السلام (وقفينا على آثارهم

بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين) فعيسى الذى جاء متمماً لشريعة موسى عليهما السلام ، لم يكن إلا مصدقاً لما بين يديه من التوراة . والإنجيل الذى جاء به ، كان مصدقاً لما بين يديه من التوراة فقط . ولكن التوراة التى جاء عيسى متمما ومصدقاً لها ، لم تكن مصدقة لما أنزل على إبراهيم أو لوط أو شعيب عليهم السلام . لتباين الشرائع المنزلة ، ولأن تصديق الكتب كلها ، والهيمنة عليها ، من خصائص القرآن العظيم .

الثالث : أن بعثة نبينا عليه الصلاة والسلام عامة ، وشريعته دائمة . فناسب أن يؤخذ العهد على الأنبياء - إن ظهر فى زمانهم - أن يؤمنوا به وينصروه ، لعموم دعوته التى تشملهم ، بخلاف الأنبياء ، فقد كان كل واحد منهم يبعث لقومه خاصة ، وربما اجتمع فى الوقت الواحد ، نبيان وثلاثة وأكثر . كل نبى فى قرية . كإبراهيم ولوط . ويعقوب ويوسف . وموسى والخضر عليهم السلام . ولم يثبت أن نبياً اتبع غيره ، وترك قومه ، أو أمرهم باتباع ذلك النبى . ولولا أن موسى ذهب يطلب الخضر ، ليتعلم منه بواطن الأمور التى أوحى بها إليه ، ما قدر لهما أن يجتمعا . فلا يعقل أن يؤخذ عهد على نبى ، فى نبى آخر لا يلزمه اتباعه ، ولا الاجتماع به ! ولا يرد على هذا قول الله تعالى فى شأن زكريا (فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ان الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين) لأن الملائكة لم يبشروه بيحيى مصدقاً بعيسى باسمه وشخصه ، كما بشرت التوراة والإنجيل بنبينا باسمه ونعته ، ولكن مصدقاً بكلمة من الله ، أى بعيسى من حيث كانت ولادته آية ، كما قال الله تعالى (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) والحكمة فى ذلك ، الرد على النصارى ، لأنه إذا كان يحيى - وهو يوحنا المعمدان عندهم - يؤمن بأن عيسى كلمة من الله ، أى أوجده بكلمة كن ، كان ادعاؤهم فيه أنه ابن الله ، أو ثالث ثلاثة ، باطلا لا ينبنى على أساس .

الرابع : أن الله تعالى أخبر عن كبار الأنبياء أنهم بشروا بنبينا صلى الله عليه وسلم وقد تقدم دعاء إبراهيم وإسماعيل (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك) وسيأتى قوله تعالى (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل) ولم يأت هذا فى شأن نبى غيره . ومن ثم آمن به تبع الأكبر وحبيب

ابن إسرائيل النجار وورقة بن نوفل وغيرهم قبل ظهوره ، ولم يؤمن بنبي أحد إلا بعد ظهوره ، كما قال الزمخشري .

الخامس : أن الله تعالى أمد نبيه بالملائكة يقاتلون معه وينصرونه كما سيأتي. وحيث وجب نصره على الملائكة الذين لم يتعبدهم الله بشريعة نبي قبله ، لا في قتال ولا في غيره فمن المعقول جداً أن يجب نصره على إخوانه الأنبياء .

السادس : أن الله تعالى وصف صحابته في التوراة والإنجيل ، كما سيأتي في سورة الفتح . فبهذه الوجوه ـ وهي مأخوذة من القرآن ـ تكون آية الميثاق نصاً في نبينا صلى الله عليه وسلم ، لا تحتمل غيره . وقد قلت في الاستغاثة :

وفي آية الميثاق عهد مؤكد من الله للرسل الكرام بجملة

وقال تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) فضلت الأمة المحمدية على غيرها من الأمم ، إكراماً لنبيها صلى الله عليه وسلم ، لأن شرف التابع ، إنما هو لشرف المتبوع .

لما التقى المسلمون والمشركون ببدر ، ورأى النبي صلى الله عليه وسلم قلة المسلمين ، وكثرة عدوهم . استقبل القبلة ؛ ومد يديه ، هاتفاً بربه (اللهم أنجزني ما وعدتني اللهم آتني ما وعدتني اللهم أن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض) فأنزل الله تعالى هذه الآيات من هذه السورة ، وآيات من سورة الأنفال ، وذكرناها هنا لأن موضوعها واحد . قال تعالى (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون) وكان النصر إجابة لدعاء النبي صلى الله عليه وسلم . قال تعالى (إذ تستغيثون ربكم) والمستغيث هو النبي عليه الصلاة والسلام كما سبق . وعبر عنه بصيغة الجمع تعظيما (فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين) بفتح الدال وكسرها . ثم تكرم الله تعالى فأمدهم بثلاثة آلاف ، ثم بخمسة آلاف . قال تعالى (إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى) يكفيكم ذلك . ثم استأنف (أن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) بفتح الواو وكسرها . نزل الملائكة وقاتلوا مع الصحابة جنباً إلى جنب ، كما قال الله تعالى

(إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) فكان الصحابى يقصد ضرب المشرك ، فتطير رقبته ، قبل أن يصل سيفه إليها ، سبقه الملك فضربها (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب) يؤخذ من هذه الآيات أمور :

أحدها : أن الله تعالى أمد نبيه بالملائكة على ثلاث دفعات : ألف . ثم ثلاثة آلاف ثم خمسة آلاف .

ثانيها : أن الملائكة نزلوا على صورة رجال يركبون خيلا ، وهم معلمون بعمائم وغيرها من نوع ما كان الصحابة معلمين به . وثبت فى كتب الصحاح من السنة والسيرة أنهم قاتلوا المشركين ، فقتلوا بعضهم ، وأسروا بعضاً آخر ، وخلصوا بعض الصحابة من القتل أو الأسر ، وساعدوا بعضهم على أسر بعض المشركين .

ثالثهما : أن الله تعالى أمد نبيه أيضاً بإلقاء الرعب فى قلوب الكفار وثبت فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة (فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لى الغنائم وجعلت لى الأرض طهوراً ومسجداً وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بى النبيون) فهذه الخصال لم تعط لنبى قبل نبينا صلى الله عليه وسلم .

« تنبيهات : الأول » ثبت فى الصحيحين عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، قال : رأيت عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن يساره يوم أحد ، رجلين عليهما ثياب بيض ، يقاتلان عنه كأشد القتال ، ما رأيتهما قبل ولا بعد . يعنى جبريل وميكائيل عليهما السلام . قال النووى : فى هذا الحديث بيان كرامة النبى صلى الله عليه وسلم على الله تعالى ، وإكرامه إياه بإنزال الملائكة تقاتل معه ، وبيان أن الملائكة تقاتل وأن قتالهم لم يختص بيوم بدر ، وهذا هو الصواب ، خلافاً لمن زعم اختصاصه . فهذا صريح فى الرد عليه . اهـ .

« الثانى » زعم بعض المتحذلقين من المعاصرين أن الإمداد بالملائكة فى الآيات المذكورة ، كناية عن الإمداد بقوة روحية . وهذا جهل فاضح ، وإلحاد فى كتاب الله .

وكيف غفل عن الأعداد ؟ ألف . ثلاثة آلاف . خمسة آلاف ؟ ! أم كيف نسى نزولهم مردفين ومسومين ؟ ! وهل القوة الروحية تقدر بكم أو كيف ؟! ولو صح هذا التأويل الفاسد . لاقتضى أن الله تعالى لم يمد نبيه بقوة روحية فى سائر غزواته ، كغزوة خيبر وفتح مكة . وهذا باطل ، فإن الله تعالى لم يتخل عن نبيه لحظة ، بل أمده بالقوة الروحية فى غزواته وسائر شئونه . وبهذا الإمداد الروحى ، قال لصاحبه فى أحرج المواقف ، وأشدها خطورة (لا تحزن إن الله معنا) وقال لعمه ـ حين عرض عليه أن يوافق قومه على ترك الدعوة ، فى مقابلة ما قدموه من مال وغيره ـ (أى عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى ، على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه) ولكن الله أمده فى بدر وأحد ، بالملائكة إمداداً حسياً . صرح به الكتاب والسنة ، وأخبر به الصحابة الذين شاهدوه ولمسوه . بل اعترف به المشركون أنفسهم ، فقد صرح كثير منهم بأنهم رأوا رجالا غير الصحابة يوقعون القتل والأسر فيهم ، صرحوا بهذا فى وقعة بدر ، وبعدها حين كانوا يتحدثون عنها . يضاف إليه إمداد معنوى ، صرحت به الآية أيضاً ، وهو إلقاء الرعب فى قلوب الكفار . وهذا مما فضل به نبينا صلى الله عليه وسلم ، على سائر الأنبياء الذين شاركوه فى الإمداد الروحى ، بل أمد الله به المؤمنين جميعاً ، كما قال تعالى (أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) .

(الثالث) أشار القرآن إلى أن الإمداد بالملائكة لم يقع لأحد غير نبينا صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى فى قصة حبيب النجار (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين) الآية . قال الزمخشرى : المعنى أن الله كفى أمرهم بصيحة ملك ولم ينزل لإهلاكهم جنداً من جنود السماء كما فعل يوم بدر والخندق . فإن قلت : وما معنى قوله تعالى : وما كنا منزلين ؟ قلت : معناه : وما كان يصح فى حكمتنا أن ننزل فى إهلاك قوم حبيب جنداً من السماء ، وذلك لأن الله تعالى أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون البعض ، وما ذلك إلا بناء على ما اقتضته الحكمة ألا ترى إلى قوله تعالى (فمنهم من أرسلنا عليهم حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا) فإن قلت : فلم أنزل الجند من السماء يوم بدر والخندق ؟ قال تعالى

(فأرسلنا عليهم ريحا وجنوداً لم تروها) بألف من الملائكة مردفين . بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) قلت : إنما كان يكفى ملك واحد ، فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل . وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة منه ، ولكن الله فضل محمداً صلى الله عليه وسلم بكل شيء على كبار الأنبياء وأولى العزم من الرسل ، فضلا عن حبيب النجار . وأولاه من أسباب الكرامة والإعزاز ما لم يوله أحداً ، فمن ذلك أنه أنزل له جنوداً من السماء ، وكأنه أشار بقوله (وما أنزلنا . وما كنا منزلين) إلى أن إنزال الجنود من عظائم الأمور التى لا يؤهل لها إلا مثلك ، وما كنا نفعله بغيرك . اهـ .

قال المشركون للنبى صلى الله عليه وسلم : ما نعبد الأصنام الا حباً لله ، ليقربونا إليه ، وقال نصارى نجران : ماعبدنا عيسى وأمه إلا محبة لله . فأنزل الله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) جعل الله اتباع نبيه سبباً فى نيل حبه ومغفرته . وقال صلى الله عليه وسلم (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) فمن ادعى الإيمان أو محبة الله . ولم يتبع رسوله ، فهو كاذب فى دعواه . ومن أظهر الكذب وأبينه دعوى إمكان الوصول إلى الله بطريق فلسفة أو رياضة أو أى طريق غير الطريق الذى بينته هذه الآية الكريمة .

وقوله تعالى (قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين) يفيد أن طاعة الله ورسوله واحدة ، لأن رسول الله لا يأمر إلا بما يرضى الله . ونذكر هنا مسألة استخرجناها من تتبع أسلوب القرآن الكريم ، وهى : أن الله تعالى يقرن كثيراً ذكر رسوله بذكره ، مثل الآية المذكورة ، ومثل (فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله . يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . . ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله . . إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول . . قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين . . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب . . يا أيها الذين آمنوا لاتخونوا

الله والرسول .. براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين .. وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله .. قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم .. أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله .. قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله .. ومامنعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله .. ولو أنهم رضوا ماآتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله .. وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله .. يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين .. ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فإن له نار جهنم .. قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون .. والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله .. وقعد الذين كذبوا الله ورسوله .. وسيرى الله عملكم ورسوله .. وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل .. أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون . إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون . ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون .. إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله .. ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً) إلى غير هذا من الآيات التى جاء فيها ذكر الرسول مقترنا بذكر الله تعالى ، وهو تشريف لم ينله أحد غير نبينا صلى الله عليه وسلم .

لما خرج النبى صلى الله عليه وسلم إلى غزوة أحد ، جعل ظهره وعسكره إلى الجبل ، ورتب الجيش ، وأجلس فرقة من الرماة بسفح الجبل . وأمر عليهم عبد الله بن جبير ، وقال لهم (انضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا ، ولا تبرحوا غلبنا أو نصرنا) وكانت الغلبة أول الأمر للمسلمين ، وولى المشركون الأدبار . فراراً من القتل . وترك بعض الرماة مكانهم بسفح الجبل،وجروا خلفهم طمعاً فى الغنيمة ـ مخالفين أمر الرسول فعمل الكفار حركة التفاف من ظهر الجبل ، وباغتوا المسلمين . فانقلبت الكرة عليهم

وانهزموا . وفروا والنبي يناديهم (إلى عباد الله إلى عباد الله) وتعجبوا كيف ينهزمون وهم مسلمون ؟ !! . فأنزل الله يعاتبهم ، ويبين لهم أن سبب هزيمتهم اختلافهم المعبر عنه بالفشل ، وعصيانهم أمر الرسول (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم) تقتلونهم (بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعدما أراكم ماتحبون) الآيات ، إلى قوله تعالى (فبما رحمة) عظيمة (من الله) وضعها فى قلبك الكبير (لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك) وذهبوا إلى الكفار (فاعف عنهم) تجاوز عما أتوه من مخالفة أمرك (واستغفر لهم) لأغفر لهم باستغفارك (وشاورهم فى الأمر) ليقتدى بك المسلمون ، فيجعلوا الشورى أساس حكمهم ، ويبنوا عليها نظام مجتمعهم . وهذه الآية تفيد ثلاثة أشياء :

أحدها : وصف النبي صلى الله عليه وسلم بالرحمة العظيمة ، لأن تنكير « رحمة » يفيد تعظيمها . فهو أرحم الرحماء بعد الله تعالى ، ومن أسمائه نبى الرحمة ، كما ثبت فى الحديث .

ثانيها : نفى الفظاظة وغلظ القلب عنه ، لأنهما صفتان لا يليقان إلا بالمتكبر القاسى وهو عليه الصلاة والسلام متواضع ، يفيض قلبه عطفاً ومودة .

ثالثها : أن الله تعالى — وهو صاحب العفو والمغفرة — يطلب من نبيه أن يعفو عن أصحابه الذين خالفوا أمره ، ليغفر هو لهم سبحانه وتعالى ، وهذا تكريم لم ينله نبى ولا رسول قبله .

فقدت قطيفة حمراء من غنائم بدر ، فقال بعض المنافقين : لعل النبى أخذها . فأنزل الله تعالى يبرىء نبيه من هذه التهمة (وما كان لنبى أن يغل) أى ما ينبغى لنبى أن يخون فى الغنيمة ، لعصمته ، فلا تظنوا به ذلك . وعلى قراءة (يغل) بالبناء للمجهول يكون المعنى : ما ينبغى لنبى أن ينسب إلى الغلول ، والجملة خبر مراد بها النهى .

والآية — على كلتا القراءتين — تفيد دفاع الله عن نبيه .

ثم ارتقى من تنزيهه ، إلى الامتنان به على المؤمنين ، فقال تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب

والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) فجعل بعثة نبيه منة على عباده ، لما ترتب عليها من نعمة الإيمان ، وتطهيرهم من الآثام ، وتعليمهم الكتاب والحكمة . وهذه — لعمر الله — أفضل النعم ، وأجلها على الإطلاق .

وقال اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم : إن الله عهد إلينا فى التوراة ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان يقدمه لله ، فإن كان صادقاً جاءت نار بيضاء من جهة السماء فأكلته . فإن كنت رسولا ، فقدم قرباناً يدل على صدقك . فأنزل الله تعالى يرد عليهم (الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين فإن كذبوك) بعد هذه الحجة الدامغة ، فاصبر ولا تحزن (فقد كذب رسل من قبلك جاؤا بالبينات والزبر والكتاب المنير) وصبروا ، فهم أسوتك . وفى هذا دفاع من الله عن نبيه ، وتسليته عما لحقه من تكذيب اليهود له .

٣ — « سورة النساء »

نزل فى اليهود الذين حرفوا نعت النبى فى كتبهم ، وكانوا إذا خاطبوه استعملوا ألفاظا قصدوا بها سبه وإيذاءه ، قوله تعالى (من الذين هادوا) قوم (يحرفون الكلم) الذى أنزل الله فى التوراة من نعت النبى صلى الله عليه وسلم (عن مواضعه) التى وضع عليها (ويقولون) للنبى صلى الله عليه وسلم إذا أمرهم بشىء (سمعنا) قولك (وعصينا) أمرك (و) يقولون أيضاً إذا خاطبوه (اسمع غير مسمع) دعاء عليه ، أى اسمع لا سمعت (و) يقولون له (راعنا) وهى كلمة سب فى قصدهم ، وسبق النهى عن خطابه بها فى سورة البقرة (ليا بألسنتهم وطعناً فى الدين) بالطعن فى النبى صلى الله عليه وسلم (ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا) بدل وعصينا (واسمع) فقط ، ولم يزيدوا : غير مسمع (وانظرنا) أى انظر إلينا ، بدل : وراعنا (لكان خيراً لهم و أقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) فضح الله اليهود فى تحريفهم نعت نبيه ، وفى سبهم إياه . وجعل الطعن فيه طعنا فى دين الإسلام ، والطاعن فى الدين كافر ، فالطاعن فى النبى

صلى الله عليه وسلم كافر ، وعليه إجماع العلماء . زاد المالكية : ويجب قتله [1] ولو تاب ، وتوبته تنفعه يوم القيامة . ومدركهم أن قتل الطاعن حق للنبي صلى الله عليه وسلم ، فلا تسقطه التوبة ، كما لا تسقط حد القذف عن القاذف . ولهذا كان القاضي الشافعي في مصر إذا رفع إليه شخص طعن في النبي صلى الله عليه وسلم، يحوله على القاضي المالكي حكاه الحافظ ابن حجر .. ثم ذكر الله تعالى في معرض عد قبائح اليهود لعنهم الله (أم) بل أ (يحسدون الناس) يعني النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو من العام المراد به الخصوص وأطلق عليه لفظ الناس ، إشارة إلى أنه جمع الكمالات الإنسانية ، فهو أمة في فرد .

كأنه وهو فرد في جلالته   في عسكر حين تلقاه وفي حشم

(على ما آتاهم الله من فضله) من النبوة وكثرة الزوجات (فقد آتينا آل إبراهيم) جده ، كموسى وداود وسليمان (الكتاب والحكمة) النبوة (وآتيناهم ملكا عظيما) كان داود وسليمان ملكين عظيمين . وفي كتب اليهود أن داود كان له تسع وتسعون امرأة كملهن مائة بزوجة أوريا التي تزوجها بعد قتل زوجها في حرب أرسله إليها ثلاث مرات .

وأن سليمان كان له ألف امرأة مابين زوج وسرية ، فلم يقولون عن النبي صلى الله عليه وسلم : لو كان نبيا لاشتغل عن النساء ، مستكثرين عليه تسع زوجات لم يقصد بزواجهن المتعة ، وإنما قصد مصالح تعود على الدعوة بأعظم الفائدة كما يظهر من ظروف كل واحدة منهن . فقد تزوج عائشة رضي الله عنها مكافأة لوالدها الذي لازمه منذ بدء

---

(١) صح في سنن أبي دواد والنسائي عن ابن عباس ، قال : إن أعمى كانت له أم ولد تكثر الوقيعة في رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتشتمه ، فقتلها الأعمى . فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم . فقال (أشهد أن دمها هدر)وفي سنن أبي داود عن الشعبي عن علي عليه السلام قال : إن يهودية كانت تشتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقع فيه . فخنقها رجل حتى ماتت . فأطل رسول الله صلى الله عليه وسلم دمها . وحكى ابن المنذر الإجماع على قتل من سب النبي صلى الله عليه وسلم الا إن تاب . فتوقف فيه الشافعية . وأوجبه المالكية ، لما ذكر في الأصل . وانظر الحديث الثامن والثلاثين من كتاب (الأحاديث المنتقاة في فضائل سيدنا رسول الله) .

الدعوة الإسلامية . وهاجر معه ، وكان صاحبه فى الغار . ولهذا المعنى تزوج حفصة بنت عمر رضى الله عنهما ، مع قصد جبر خاطره أيضاً ، لأنه كان عرض زواجها على عثمان فأبى . وقال له ـ كما فى الحديث ـ (يتزوج حفصة من هو خير من عثمان) وتزوج بنت عمته زينب بنت جحش ، بأمر القرآن ، ليبطل حكم التبنى عملياً (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا) وتزوج أم سلمة وزينب بنت خزيمة رضى الله عنهما لأن زوجيهما استشهدا فى أحد ، ولم يكن لهما عائل يكفلهما بعد زوجيهما . وتزوج أم حبيبة رضى الله عنها ، لأنها هاجرت مع زوجها إلى الحبشة ، وتنصر زوجها ، وبقيت غريبة وحيدة . ولو عادت إلى مكة ، لعذبها أهلها ، وفتنوها عن دينها . مع ملاحظة أنها بنت أبى سفيان أحد زعماء المشركين بمكة ، ففى الزواج بها مصلحة لا تخفى . وتزوج صفية رضى الله عنها ، لأنها تعرضت للأسر والهوان ، بعد أن كانت عزيزة فى أهلها ، إذ كان أبوها وعمها سيدى قومهما . وخيرها بين أن تعود إلى أهلها ، أو تقعد معه ، فاختارته وهى إسرائيلية ، وأبوها حيى بن أخطب سيد بنى قريظة . وتزوج سودة بنت زمعة رضى الله عنها ، لأن زوجها ـ وكان ابن عمها ـ مات عنها بعد عودتها من الحبشة ، وليس لها عائل ، وإذا عادت إلى أهلها فتنوها عن دينها . وتزوج جويرية بنت الحارث رضى الله عنها ، بعد أن سبيت فى غزوة بنى المصطلق ، فأكرمها عن الإهانة وأعتقها وكان أبوها سيد قومه . وحض النبى صلى الله عليه وسلم المسلمين على إعتاق سباياهم فى تلك الغزوة ، فأعتقوهم ، فأسلموا جميعاً ، وحسن إسلامهم . فكان زواجها بركة عليها وعلى قومها .

ويلاحظ أن زوجاته كلهن كبيرات ثيبات إلا عائشة ، فهى الوحيدة التى كانت صغيرة عذراء . وكان فى إمكانه عليه السلام ـ وقد فتح الله له مكة ، ودانت له الجزيرة العربية ـ أن يتزوج أجمل بنات العرب ، ويتخذ ما شاء من الجوارى ، لكنه لم يفعل . وظل ـ إلى جانب هذا ـ وفيا لزوجه الأولى خديجة رضى الله عنها ، يثنى عليها كلما ذكرها ، ويواصل صديقاتها وأقاربها وجيرانها ببره وعطفه ، حتى غارت منها عائشة ولم ترها كما قالت عن نفسها . وقالت له مرة : ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين ، قد

أبدلك الله خيراً منها . فرد عليها بغضب (لا والله ما أبدلني الله خيراً منها) الحديث[1] .
فليست المسألة حكاية متعة جنسية ، ولكنها معانى إنسانية. ومن الحكمة فى تعددزوجاته عليه السلام أن ينقلن عنه الأحكام الخاصة بالنساء فى الجماع والحيض والنفاس ، وما إلى ذلك . فليس للمبشرين وأمثالهم من الحاقدين على الإسلام ، ونبى الإسلام ، أى حجة فى هذه المسألة التى هولوا بها،وظنوا أنهم أتوا بحجة لا يستطيع المسلمون دفعها،والواقع أنها حجة داحضة ، يدرك سقوطها بأدنى تأمل ، والله الموفق .

وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) هم الولاة كالخليفة والقاضى . أعيد الأمر بطاعة الرسول تنبيها على وجوب طاعته فيما يصدر عنه من أوامر ونواهى زائدة على ما فى القرآن . ولم يعد الأمر بطاعة أولى الأمر إشارة إلى أن طاعتهم بالتبعية لطاعة الله ورسوله ، لا استقلالية . ولهذا عقب بقوله تعالى (فإن تنازعتم فى شىء) أمركم به الولاة أو نهوكم عنه مثلا (فردوه إلى الله) أى إلى كتابه (والرسول) أى سنته (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) فطاعة أولى الأمر واجبة ماكانت داخلة فى دائرة الكتاب والسنة ، فإن خرجت عنهما فلا تجب .
(ذلك) الرد إلى الله والرسول (خير وأحسن تأويلا) مآلا وعاقبة . وليس خير وأحسن على بابهما ، بدليل (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) بل المراد بهما إثبات الخير وحسن العاقبة ، فيكون مقابلها وهو عدم الرد شراً وسىء العاقبة .

وهذه الآية تشمل متعصبى المقلدين الذين يتركون مقتضى الدليل ، لقول أئمتهم .
(إن قيل) ما الحكمة فى أن الله تعالى قال فى الآية السابقة فى آل عمران (قل أطيعوا الله والرسول) ولم يقل : وأطيعوا الرسول ؟ قلت : خاطب الله بهذه الآية المشركين من أهل الكتاب وغيرهم الذين قالوا : ما نعبد المسيح أو عزيرا أو الأصنام إلا حباً لله وتقرباً إليه . فقال الله لنبيه : قل لهم أطيعوا الله والرسول فيما يأمركم به من التوحيد ولا شك أنه مصرح به فى القرآن ، مقرر بدلائله المتنوعة ، فالنبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) ولذا قال العلماء : أفضل أزواجه خديجة ثم عائشة رضى الله عنهما ، أما أفضل نساء هذه الأمة ففاطمة الزهراء عليها السلام .

حين يأمر به ، لم يأمر إلا بما أثبته القرآن العظيم ، وفصل دلائله ولذا عقب بقوله تعالى (فإن تولوا) عن التوحيد (فإن الله لا يحب الكافرين) أما الخطاب هنا ، فهو موجه إلى المؤمنين فيما يختص بالأحكام والعبادات والمعاملات التى يقتضيها مجتمعهم ، زيادة على التوحيد الذى أقروا به ، واطمأنت إليه قلوبهم . والسنة أتت فيها بأشياء ليست فى القرآن فأوجب الله اتباعها .

وقال تعالى (ولو أنهم) أى المنافقين الذين نزلت فيهم الآية ، وإن كان اللفظ عاماً يشمل غيرهم أيضاً ، حسب القاعدة المقررة (إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول) فيه التفات عن الخطاب ، تعظيما له ، وتفخيماً لشأنه ، وتنويها بمقامه (لوجدوا الله تواباً رحيما) فاستغفار الرسول لهم سبب فى توبة الله عليهم ، ورحمته بهم . ويؤخذ منه أن طلبه مقبول عند الله تعالى ، وشفاعته لا ترد .

قال البيضاوى : وإنما عدل عن الخطاب ، ولم يقل . واستغفرت لهم ، لأن القياس يقتضى هذا ، لقوله (جاؤك) تفخيما لشأنه ، وتنبيها على أن من حق الرسول أن يقبل اعتذار التائب وإن عظم جرمه ، ويشفع له . ومن منصبه أن يشفع فى كبائر الذنوب . قلت : ولهذا صح عن أنس وغيره من طرق عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى) .

وقال سبحانه (فلا وربك لا يؤمنون) أى المنافقون وغيرهم (حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) ينقادوا انقياداً مطلقا لا معارضة فيه . ويؤخذ منه أن النبى صلى الله عليه وسلم لا يخطىء ، وإلا لما وجب التسليم لحكمه تسليما مطلقا . فالآية ترد قول الذين شذوا بتجويز الخطأ عليه . وأشار التاج السبكى فى جمع الجوامع ، إلى رد هذا القول الشاذ ، بقوله : والصواب أن اجتهاده عليه السلام لا يخطىء . هذا وللعارف الكبير التاج أبى العباس أحمد ابن عطاء الله السكندرى ، فى كتاب التنوير ، كلام على هذه الآية ، أحببنا أن ننقله لفائدته . قال : ثم إنه سبحانه لم يكتف بنفى الإيمان عمن لم يحكم ، أو حكم ووجد الحرج فى نفسه حتى أقسم على ذلك بالربوبية الخاصة برسوله صلى الله عليه وسلم . رأفة وعناية ، وتخصيصا

ورعاية ، لأنه لم يقل : فلا والرب ، وإنما قال : وربك لا يؤمنون . الآية ، ففى ذلك تأكيد فى القسم ، وفى المقسم عليه ، إظهاراً لعنايته برسوله صلى الله عليه وسلم إذ جعل حكمه حكمه ، وقضاءه قضاءه . فأوجب على العباد الاستسلام لحكمه ، والانقياد لأمره ولم يقبل منهم الإيمان بألوهيته ، حتى يذعنوا لأحكام رسوله صلى الله عليه وسلم . وفى الآية دلالة أخرى لعظم قدره ، وتفخيم أمره صلى الله عليه وسلم . وهى قوله تعالى (فلا وربك) فأضاف نفسه إليه ، كما قال فى الآية الأخرى (كهيعص ذكر رحمة ربك عبده زكريا) فأضاف الحق سبحانه وتعالى اسمه إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وأضاف زكريا إليه ، ليعلم العباد فرق ما بين المنزلتين ، وتفاوت ما بين المرتبتين . ثم أنه تعالى لم يكتف بالتحكيم الظاهر ، فيكونوا به مؤمنين . بل اشترط فقدان الحرج ، وهو الضيق فى نفوسهم من أحكامه صلى الله عليه وسلم ، سواء كان الحكم بما يوافق أهواءهم أو يخالفها . وقال أيضا : اعلم أن الأحوال ثلاثة : قبل التحكيم ، وفيه ، وبعده . فأما قبل التحكيم ، فعبوديتهم التحكيم .

وأما فى الحكم وبعده ، فعبوديتهم عدم وجدان الحرج فى أمورهم . فإن قلت : إن ذلك لازم من قوله تعالى (حتى يحكموك) : قيل ليس كل من حكم فقد الحرج عنه ، إذ قد يحكم ظاهراً ، والكراهة عنده موجودة ، فلا بد أن ينضم إلى التحكيم فقدان الحرج ووجود التسليم . فإن قال قائل : إذا لم يجدوا الحرج فقد سلموا تسليما . فما فائدة الإتيان بقوله : ويسلموا تسليما ، بعد نفى الحرج المستلزم لقبول التسليم الذى من صفته ووجود التأكيد ؟ فالجواب : أن قوله تعالى (ويسلموا تسليما) أى فى جميع أمورهم . فإن قلت : إن ذلك لازم من قوله (حتى يحكموك) فالجواب : أن التحكيم ما أطلقه ، بل قيده بقوله تعالى (فيما شجر بينهم) فصارت الآية تتضمن ثلاثة أمور : (أحدها) التحكيم فيما اختلفوا فيه (الثانى) عدم وجدان الحرج فى التحكيم . (الثالث) : وجود التسليم المطلق فيما شجر بينهم ، وفيما نزل بينهم فى أنفسهم ، فهو عام بعد خاص ، فافهم . ثم أخبر الله تعالى بعموم رسالة نبيه ، فقال (وأرسلناك للناس رسولا) وستأتى آيات كثيرة بهذا المعنى . وقوله سبحانه (وكفى بالله شهيداً) على رسالتك ، رد على اليهود والمشركين الذين أنكروا رسالته . ثم رتب على ما تقدم ، ترتيب النتيجة على

المقدمة ، قوله تعالى (من يطع الرسول) فى كل ما أمر به أو نهى عنه (فقد أطاع الله) فطاعة الرسول طاعة الله . ثم أنذر المعرضين عن طاعته ، فقال (ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا) بل نحن نتولى عقابهم . ويلاحظ من هذه الآية وما فى معناها أن الله تعالى حض — تارة — على طاعة رسوله ، ورغب فيها ، وجعلها طاعته ، وتارة أمر بها إلى جانب الأمر بطاعته . ولم يفعل هذا مع الأنبياء قبله عليهم الصلاة والسلام . فقد قال نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وعيسى لقومهم (فاتقوا الله وأطيعون) والسر فى ذلك أن الله سبحانه وتعالى لما تولى الدفاع عنه ، حسبما بيناه فى سورة البقرة ، تولى توجيه الأمر بطاعته . والحض عليها . وحيث ترك للأنبياء مهمة الدفاع عن أنفسهم ، ترك لهم توجيه الأمر بطاعتهم ، وبين المقامين بون شاسع .

(تنبيه) الخطاب فى الآية السابقة على هذه ، وهى قوله تعالى (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) موجه إلى الإنسان من حيث هو ، وقيل الخطاب موجه إلى الرسول ، والمراد أفراد أمته . وهذا كقوله تعالى (يا أيها النبى إذا طلقتم النساء) والمراد بالحسنة النعمة ، وبالسيئة النقمة .

ومعنى الآية أن النعمة تصيب الإنسان بفضل الله ، والنقمة تصيبه بشؤم معاصيه ، وفى الحديث الصحيح (إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه) وقال تعالى يخاطب رسوله (فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك) ولا يهمك تخلف المنافقين وغيرهم وقد عد من خصائصه عليه الصلاة والسلام — أخذاً من هذه الآية ومن حديث صحيح — أنه إذا هم بحرب ولبس لأمته ، فلا يرجع حتى يحكم الله بينه وبين عدوه . ويقاتل ولو كان وحده ، لأنه موعود بالنصر .

وسرق أنصارى اسمه طعمة بن أبيرق — وكان منافقاً — من بيت جاره قتادة ، درعاً ودقيقاً فطبخ الدقيق ، وخبأ الدرع عند يهودى اسمه زيد بن سمعة ، ووجدت الدرع عنده ، فقال : أودعها طعمة عندى ، فأنكر ، وحلف ما سرقها ، وبه أهله ، وحلفوا معه . فهم النبى صلى الله عليه وسلم بقطع يد اليهودى . لأن الدرع وجدت عنده . وشهد طعمة وأهله ضده . فأنزل الله تعالى (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس

بما أراك الله ولا تكن للخائنين) طعمة وأهله (خصيما) مخاصما عنهم . ولو أنه صلى الله عليه وسلم حكم على اليهودى ، لما كان عليه من حرج فى ذلك . لوجود الدليل والقرينة كما سبق . ولكن الله لا يرضى لنبيه إلا أن يكون حكمه مطابقاً للواقع ونفس الأمر ، ظاهراً وباطناً . فنبهه بهذه الآية إلى حقيقة ما وقع ، ومن هنا تعلم بطلان ما زعمه بعض الشذاذ من أن النبى صلى الله عليه وسلم قد يخطىء ، وأن الله ينبهه بعد وقوع الخطأ ، حيث نجده هنا ينبهه قبل صدور الحكم ، فبان بطلان ما زعموه . (واستغفر الله) مما هممت به (إن الله كان غفوراً رحيماً) وإذا كان الله يأمره بالاستغفار من الهم ، مع أنه غير مؤاخذ به ، فكيف يتركه يخطىء ؟! فإن قيل: ما الحكمة فى أمره بالاستغفار من الهم ؟ فالجواب : أن الحكمة فيه : بيان حفظه من الخطأ ، حتى فى الهم الذى لا يؤاخذ به . ولهذا عد العلماء من السنة همه صلى الله عليه وسلم بالشىء .

وقالوا : يسن صيام تاسوعاء بجانب عاشوراء . لأنه صلى الله عليه وسلم هم بصيامه وتوفى قبل مجيئه . وعرفوا السنة بأنها أقوال النبى صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريره وهمه بالشىء . (ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم) من المنافقين (أن يضلوك) عن القضاء بالحق فى هذه القضية ، لكنهم لم يضلوك ، لفضل الله عليك ، وعصمته إياك (وما يضلون إلا أنفسهم) لو فرض أنهم أضلوك بشهادة الزور ، وحلفهم كذباً (وما يضرونك من شىء) لأنك حكمت بما سمعت من الشهود ، مع وجود الدرع عند اليهودى . وهذا تأكيد لبراءته صلى الله عليه وسلم من الخطأ فى الحكم ، ولو حاول المنافقون إيقاعه فيه (وأنزل عليك الكتاب والحكمة) ما فيه من الأحكام ، أو المراد بها السنة (وعلمك ما لم تكن تعلم) من الأحكام والغيوب والحقائق (وكان فضل الله عليك) بما ذكر وغيره (عظيما) لا يعلم قدره إلا واهبه لك ، وفى هذا تنويه كبير بمقامه صلى الله عليه وسلم .

(تنبيهات) : (الأول) قوله تعالى (لتحكم بين الناس بما أراك الله) أخذ منه العلماء جواز الاجتهاد له صلى الله عليه وسلم . وقال عمر رضى الله عنه : لا يقولن أحدكم : قضيت بما أرانى الله . فإن الله لم يجعل ذلك إلا لنبيه صلى الله عليه وسلم . ولكن ليجتهد رأيه ، لأن الرأى من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مصيباً لأن

الله تعالى كان يريه إياه ، وإن رأى أحدنا يكون ظناً ولا يكون علماً . وهذا الكلام صريح فيما قررناه من أنه صلى الله عليه وسلم لا يخطىء فى اجتهاده.

(الثانى) قوله تعالى (واستغفر الله) أبعد من أخذ منه وقوع الذنب منه عليه السلام ، لأن الهم . غير مؤاخذ به بالنص والإجماع . والاستغفار ليس خاصاً بالذنوب بل له حكم كثـــيرة ، منها ما بيناه فيما سبق ، ومنها : استدرار الرزق ، لقوله تعالى (استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً)[١] الآية . ومنها : تفريج الهموم ، لقوله صلى الله عليه وسلم (من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب) .

قال الزمخشرى : فى سورة النصر : والأمر بالاستغفار مع التسبيح تكميل للأمر بما هو قوام أمر الدين من الجمع بين الطاعة والاحتراس من المعصية ، وليكون أمره بذلك ـ مع عصمته ـ لطفا لأمته ، ولأن الاستغفار من التواضع لله ، وهضم النفس ، فهو عبادة فى نفسه اهـ[٢] .

---

(١) عن الحسن البصرى أن رجلا شكى إليه الجدب . فقال : استغفر الله . وشكى إليه آخر ، الفقر . وآخر ، قلة النسل . وآخر ، قلة ريع أرضه . فأمرهم كلهم بالاستغفار . فقال له الربيع بن صبيح : أتاك رجال يشكون أبواباً ، ويسألون أنواعاً ، فأمرتهم كلهم بالاستغفار ؟ فتلا عليه (استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً) .

(٢) وقال أيضاً فى تفسير قوله تعالى (قل رب إما ترينى ما يوعدون رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين) : فإن قلت : كيف يجوز أن يجعل الله نبيه المعصـــوم مع الظالمين حتى يطلب ألا يجعله معهم ؟ قلت . يجوز أن يسأل العبد ربه ما علم أنه يفعله . وأن يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله . إظهاراً للعبودية . وتواضعاً لربه . وإخباتاً له . واستغفاره صلى الله عليه وسلم إذا قام من مجلسه سبعين مرة أو مائة مرة ، لذلك وما أحسن قول الحسن ـ فى قول أبى بكر الصديق رضى الله عنهما : وليتكم ولست بخيركم ـ : كان يعلم أنه خيرهم ولكن المؤمن يهضم نفسه

(الثالث) : مما استنبطته من تتبع أسلوب القرآن الكريم أن الله تعالى إذا أسند إليه تعليم شخص معين ، كان ذلك دليلا على نبوته . مثل (وعلمك ما لم تكن تعلم . . وعلم آدم الأسماء كلها . . وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء . ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل .. وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل .. وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث .. وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم) ومن هنا كان قوله تعالى ـ فى سورة الكهف ـ (فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما) دليلا على نبوة الخضر عليه السلام ، يضاف إلى الأدلة التى ذكرتها فى « خواطر دينية » .

وقال مشركو مكة للنبى صلى الله عليه وسلم إنا سألنا اليهود عنك وعن صفتك فى كتابهم ، فزعموا أنهم لا يعرفونك . فأنزل الله تعالى — رداً عليهم — (لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً) وهذا من جملة دفاع الله عن نبيه صلى الله عليه وسلم .

ثم توعد الله اليهود الذين أنكروا نبوته ، فقال تعالى (إن الذين كفروا ، وهم اليهود (وصدوا) الناس (عن سبيل الله) وهو الإسلام ، بقولهم للمشركين : أنتم أهدى سبيلا من محمد (قد ضلوا ضلالا بعيداً . إن الذين كفروا) وهم اليهود أيضاً (وظلموا) النبى بكتم نعته الموجود فى كتابهم (لم يكن الله ليغفر لهم ولا يهديهم طريقاً . إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيرا) هيناً . أوجب لهم التأبيد فى النار ، وهذا يدلك على مقدار حب الله لنبيه ، ورعايته له .

٤— « سورة المائدة »

نزلت فى حجة الوداع — والنبى صلى الله عليه وسلم واقف بعرفة يخطب — قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) فى هذا تشريف للنبى صلى الله عليه وسلم ، حيث صرح الله تعالى بأنه أكمل له ولأمته دينهم ، ورضى لهم الإسلام ديناً . ولهذا قال بعض أحبار اليهود ـ لعمر رضى الله عنه ـ

يا أمير المؤمنين نزلت عليكم آية ، لو نزلت فينا معشر اليهود : لاتخذنا ذلك اليوم عيداً قال عمر : وما هى ؟ فذكر هذه الآية ، قال عمر : فإنها نزلت يوم الجمعة بعرفة ، يعنى وهو يوم عيد عند المسلمين . ومثل هذه الآية ، قوله تعالى (إن الدين عند الله الإسلام) فهذه الآية الكريمة تفيد بطلان كل دين غير دين الإسلام الذى بعث الله به نبيه صلى الله عليه وسلم . ولهذا صرح فى آية أخرى بأن متبع غيره خاسر ، فقال تعالى (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) وهذا يفيد عموم بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن دينه ناسخ لجميع الأديان . فالذين يعتقدون إمكان دخول الكتابى الجنة ، أو أن عمله الصالح ينفعه يوم القيامة ، خاطئون بهذا الاعتقاد ، لمخالفتهم صريح القرآن ، وانحرافهم عن الدين .

وقال تعالى (يا أهل الكتاب) وهم اليهود والنصارى (قد جاءكم رسولنا) محمد صلى الله عليه وسلم . وأضافه إليه تشريفاً (يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب) التوراة والإنجيل ، كحكم الرجم وغيره (ويعفوا عن كثير) لا يبينه لعدم تعلق المصلحة ببيانه ، كبعض الأخبار المحرفة . وقد قسم العلماء ما فى كتب اليهود والنصارى إلى ثلاثة أقسام : قسم دل القرآن أو السنة على صحته ، فهو مقبول . وقسم أفاد القرآن أو السنة عدم صحته ، فهو مردود . وقسم لم نجد فى القرآن أو السنة ما يؤيده أو يرده ، فهذا لا نجزم فيه بقبول ولا رد . عملا بقوله عليه الصلاة والسلام (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم) قالوا : غير أنه إذا كان فى باب المواعظ وترقيق القلوب ، فلا بأس به . لأن عمر رضى الله عنه كان يستمع إلى ما ينقله كعب الأحبار من الرقائق . بل كان يدعوه أحيانا إلى ذلك بقوله : خوفنا يا كعب . ومما لا يضر نقله عنهم تعيين بعض الأسماء المبهمة فى القرآن كتعيين ملكة سبأ بأنها بلقيس ، والذى عنده علم من الكتاب ، بأنه آصف بن برخيا .

ونحو هذا مما لا يمس العقيدة ، ولا يتعلق بشىء من الأحكام (قد جاءكم من الله نور) هو النبي صلى الله عليه وسلم . لأنه ينور العقل والبصائر . والنور من أسماء الله تعالى سمى به نبيه صلى الله عليه وسلم (وكتاب مبين) هو القرآن الكريم (يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات) الكفر والجهل (إلى النور)

الإيمان والعلم (بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) دين الإسلام ، وفى هذا تشريف كبير لنبينا صلى الله عليه وسلم .

وقال سبحانه (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا) محمـــد صلى الله عليه وسلم ، والإضافة للتشريف كما سبق (يبين لكم على فترة من الرسل أن) لا (تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير) فسمى نبيه بشيراً ونذيراً ، وستأتى أسماء كثيرة له ، وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى ، ونباهة قدره . إذ كل اسم منها ينبىء عن ناحية من نواحى العظمة فيه .

وقال جل شأنه (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم) وهم المنافقون ، وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم عن مسارعة المنافقين إلى إظهار الكفر الذى يبطنونه ، كلما وجدوا فرصة لإظهاره وههنا فائدة ينبغى أن ننبه إليها ، وهى أن الله تعالى لم يناد رسوله إلا باللقب المشعر بالتعظيم ، نحو (يا أيها الرسول . . يا أيها النبى . . يا أيها المزمل . . يا أيها المدثر) ونادى غيره من الأنبياء بأسمائهم المجردة (يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة . . يا نوح إنه ليس من أهلك . . يا إبراهيم أعرض عن هذا . . يا موسى أقبل ولا تخف . . يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض . . يا يحيى خذ الكتاب بقوة . . يا عيسى إنى متوفيك) ومن هنا يتبين علو رتبته على جميع الأنبياء وقد أشرت إلى هذا فى الاستغاثة بقولى :

أجل إله العرش قدر نبيه   فعظمه عند النداء بكنية

وقال الزمخشرى ـ فى أول سورة الأحزاب ـ : جعل نداءه بالنبى والرسول فى قوله (يا أيها النبى اتق الله . يا أيها النبى لم تحرم . يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك) وترك نداءه باسمه ، كما قال : يا آدم يا موسى يا عيسى يا داود ، كرامة له وتشريفاً ، وربئاً بمحله ، وتنويهاً بفضله . فإن قلت : إن لم يوقع اسمه فى النداء ، فقد أوقعه فى الإخبار فى قوله : محمد رسول الله . وما محمد إلا رسول . قلت : ذاك لتعليم الناس بأنه رسول الله ، وتلقين لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به . فلا تفاوت بين النداء والإخبار ، ألا ترى إلى ما لم يقصد به التعليم والتلقين من الإخبار ، كيف ذكره بنحو ما ذكره

فى النداء : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم . وقال الرسول يارب . لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة . والله ورسوله أحق أن يرضوه . النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم . إن الله وملائكته يصلون على النبى . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى) اه .

وقال سبحانه (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) فلا يصلون إلى قتلك .

وكان صلى الله عليه وسلم يحرس قبل نزول الآية احتياطاً . قالت عائشة رضى الله عنها : سهر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مقدمه المدينة ليلة ، فقال (ليت رجلا صالحاً من أصحابى يحرسنى الليلة) قالت : فبينما نحن كذلك ، سمعنا خشخشة السلاح . قال (من هذا ؟) قال : سعد بن أبى وقاص . قال (ما جاء بك ؟) قال : وقع فى نفسى خوف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجئت أحرسه . فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونام حتى سمعت غطيطه . ثم نزلت هذه الآية ، فأخرج رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم رأسه من قبة أدم ، وقال (انصرفوا أيها الناس فقد عصمنى الله) .

(تنبيهات) : (الأول) عبر الله تعالى بقوله (يعصمك) ولم يقل : يحفظك أو يقيك أو يسلمك ، مع أن معناها متقارب ، أو واحد . لأن العصمة تناسب مقام النبوة فيؤخذ منه مراعاة الأدب فى جانب النبى صلى الله عليه وسلم . ووجوب اختيار الألفاظ اللائقة بمقامه الكريم .

(الثانى) : أخبرنى الشيخ حمدى أصلان جافا الألبانى - وهو من العلماء الذين تلقوا عنى فى التفسير والأصول - أنه قرأ لمستشرق ألمانى - ذكر اسمه - أنه قال : ترك محمد للحراسة ، مع تخوفه من المشركين واليهود ، اعتماداً على هذه الآية ، دليل على صدقه . قلت : هذه ملاحظة معقولة .

وقال سبحانه (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا) عصيانهما . وأعيد الأمر بطاعة الرسول لما بيناه فى سورة النساء (فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين) وجزاؤكم علينا . شهد الله لرسوله[1] بالبلاغ المبين ، وتكررت هذه

---

(١) ومثل هذه الشهادة قوله تعالى (فتول عنهم فما أنت بملوم) حيث أباح لنبيه الإعراض=

الشهادة فى غير آية ، ومن هنا لم يكن فى حاجة إلى من يشهد له يوم القيامة بالبلاغ ، بل هو صلى الله عليه وسلم يشهد على أمته ، كما سبق فى قوله تعالى (لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) وهذا ـ أى عدم احتياجه إلى من يشهد له ـ من خصوصياته عليه الصلاة والسلام .

٥ ـ « سورة الأنعام »

قال المشركون للنبى صلى الله عليه وسلم : ائت بمن يشهد لك ، فإن أهل الكتاب أنكروك . فأنزل الله تعالى (قل) لهم (أى شىء أكبر شهادة قل الله) إن لم يجيبوا ، لاجواب غيره . هو (شهيد بينى وبينكم) على صدق ، وهذا من دلائل عناية الله بنبيه فى رد ما يورده عليه المشركون وأهل الكتاب ، وقد نبهنا على هذا فيما سبق (وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به) معشر العرب (ومن بلغ) أى بلغه القرآن من الإنس والجن وهذا تصريح بعموم نذارته للثقلين (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه) محمداً باسمه ونعته (كما يعرفون أبناءهم) فلا ينكرونه (الذين خسروا أنفسهم) منهم ، حيث أوجبوا لها الخلود فى النار بإنكاره (فهم لا يؤمنون) به . والآية تسجل الخسران على منكر النبى صلى الله عليه وسلم ولو كان مؤمنا بموسى وعيسى عليهما السلام فى ادعائه ، لأن تكذيبه تكذيب لهما . ثم أخذ يسليه عن تكذيبهم له . فقال سبحانه (قد)[1]

= عن المشركين ، وأخبر أنه غير ملوم فى إعراضه عنهم ، وما ذاك إلا لأنه أدى لهم الرسالة ، وبذل معهم غاية الجهد . بحيث إنهم اعترفوا بذلك فى قولهم (أهذا الذى بعث الله رسولا إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها) قال الزمخشرى : قولهم إن كاد ليضلنا دليل على فرط مجاهدة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعوتهم ، وبذل قصارى الوسع والطاقة فى استعطافهم. مع عرض الآيات والمعجزات عليهم ، حتى شارفوا بزعمهم أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام . لولا فرط لجاجهم اهـ ويونس عليه السلام ، حين تولى عن قومه ، عاتبه الله بما قصه فى كتابه .

(١) قال الزمخشرى : قد بمعنى ربما الذى يجىء لزيادة الفعل وكثرته . كقوله :

أخى ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله

للتحقيق (نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون) من تكذيبك وشتمك (فإنهم لا يكذبونك) فى الباطن ، لعلمهم بصدقك وقد كانوا يسمونك الأمين (ولكن الظالمين) أظهر فى موضع الإضمار ، تصويراً لشفاعة كفرهم (بآيات الله يجحدون) عناداً (ولقد كذبت رسل من قبلك) هذا من جملة تسليته عليه الصلاة والسلام (فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا) فأهلكنا مكذبيهم . فاصبر مثلهم فسيأتيك نصرنا (ولقد جاءك من نبأ المرسلين) ما فيه تثبيت قلبك (وإن كان كبر) عظم (عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض) تدخل فيه (أو سلماً فى السماء) تصعد عليه (فتأتيهم بآية) مما اقترحوا عليك ليسلموا . فإنك لا تستطيع ذلك ، فاصبر حتى ينصرك الله (ولو شاء الله) هدايتهم (لجمعهم على الهدى) لكنه لم يشأ هدايتهم (فلا تكونن من الجاهلين) بذلك . والنهى عن الشيء لا يستلزم وقوعه . فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن قط جاهلا بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا يجوز عليه الجهل بذلك . وصح عنه عليه الصلاة والسلام قوله (من قال حين يصبح أو يمسى : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن أعلم أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً . لم يصبه بلاء) وإنما المراد بالنهى عنه ، الأمر باستدامة ضده ، وهذا مثل قوله تعالى (ولا تدع مع الله إلهاً آخر) أى دم على ما أنت عليه فى التوحيد (إنما يستجيب الذين يسمعون) سماع تفهم ، فيستجيبون للإيمان (والموتى) عنى بهم الكفار ، لعدم سماعهم القرآن (يبعثهم الله ثم إليه يرجعون) فيعاقبهم على تكذيبهم (وقالوا) أى الكفار (لولا نزل عليه آية من ربه) كالناقة والعصا (قل) لهم (إن الله قادر على أن ينزل آية) مما اقترحتموها (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أن نزولها بلاء ووباله عليهم ، لوجوب إهلاكهم إن لم يؤمنوا ، كما حصل للأمم قبلهم ، ولكن الله تعالى حكم ببقاء هذه الأمة إلى يوم القيامة . وهذا مثل قوله تعالى ، (وما منعنا أن نرسل بالآيات) التى اقترحها كفار مكة (إلا أن

أى ولكنه كثيراً يهلك المال نائله أى عطاؤه . وهذا من لطائف اللغة العربية وهو التعبير عن المعنى بما يشعر بعكسه . تنبيها على أنه بلغ الغاية التى ما بعدها إلا الرجوع إلى الضد . ومثل قد فى هذه الآية — فى إفادة التكثير — قد فى قوله تعالى (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر . . قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا . . قد يعلم ما أنتم عليه . . قد يعلم الله المعوقين منكم) وفى قول موسى لقومه (وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم) .

كذب بها الأولون) حين أرسلنا بها وفق طلبهم ، فأهلكناهم . ولو أرسلناها إلى هؤلاء وكذبوا بها ، لحق عليهم الهلاك . لكننا حكمنا بإمهالهم ، لإتمام أمر محمد ، وبقاء شريعته . وأمته . مع أن القرآن آية كبرى . ومعجزة عظمى ، أعجز الجن والإنس أن يأتوا بمثله ، ولا ببعض ما فيه . ولهذا قال صلى الله عليه وسلم (ما من نبي إلا أوتى ما على مثله آمن البشر وكان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة[1]) وهذا لا يمنع أن يكون له صلى الله عليه وسلم معجزات مادية اقتضاها الحال ، واستدعاها الوقت . كالإسراء والمعراج ، ونبع الماء من أصابعه الشريفة وحنين الجذع ، وانشقاق القمر ، ونحو ذلك مما جاء فى القرآن ، وصرحت به الأحاديث المقطوع بصحتها ، وأجمع عليه أهل السنة. وليس فى الآيتين المذكورتين، ولا فى الحديث المذكور ، متمسك المبتدعة الذين خرجوا عن الإجماع بإنكارها . لأن المراد بالآيتين قطع طمع النبى صلى الله عليه وسلم فى إيمان أولئك المشركين ، وبيان أن سؤالهم الآيات قصدوا به العناد ، لا الاسترشاد . واقرأ قوله تعالى (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) الآية ، تجدهم بلغوا فى العناد حداً يصير معه إيمانهم من قبيل الممتنع . ولذا أيأسه الله من إيمانهم بقوله (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) وأ ما الحديث فالمراد به ن أعظم معجزة أوتيها النبى صلى الله عليه وسلم هى القرآن ، لما بيناه فى المقدمة .

طلب المشركون من النبى صلى الله عليه وسلم أن يجعل بينه وبينهم حكماً من أحبار

---

(١) قال بعض العلماء الأندلسيين : إن أعظم المعجزات وأوضحها دلالة القرآن الكريم لأن الخوارق فى الغالب ، مغايرة للوحى الذى تلقاه النبى . وتأتى المعجزة شاهدة . والقرآن هو نفسه الوحى المدعى وهو الخارق المعجز . فدلالته فى عينه : ولا يفتقر إلى دليل أجنبي عنه . فهو أوضح دلالة . لاتحاد الدليل والمدلول فيه ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم (ما من نبى إلا أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذى أوتيته وحياً إلى فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة) يشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة فى الوضوح وقوة الدلالة وهو كونها نفس الوحى ، كان المصدق لها أكثر .

اليهود أو أساقفة النصارى ، ليخبرهم بما فى كتبهم من صفاته ، فيقروه عليها . فأنزل الله تعالى رفض طلبهم على لسان رسوله . قل (أفغير الله أبتغى حكما) بينى وبينكم (وهو الذى أنزل إليكم الكتاب) القرآن (مفصلا) مبينا فيه صفاتى المذكورة فى التوراة والإنجيل . وقد حرفها كثير من الأحبار والرهبان ، كما سجله القرآن فى مواضع . فلا يصلحون للتحكيم ، لأن الغرض أعماهم عن الحق . (والذين آتيناهم الكتاب) كعبد الله بن سلام والنجاشى (يعلمــون أنه) أى الكتاب (منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين) والنبى صلى الله عليه وسلم لا يمترى فى حقية القرآن، ولا يجوز عليه ذلك . والمراد بالنهى عنه ، الأمر باستدامة ضده ، والتعريض بالمشركين بأن شكهم لا ينبغى ، لأنه لا ينبنى على أساس . وههنا نكتة تنبه عليها ، وهى أن القرآن إذا قال (الذين آتيناهم الكتاب) بإضافة الفعل إلى الله تعالى ، فهو يقصد المنصفين كعبد الله بن سلام وتميم الدارى ونحوهما ممن آل بهم الإنصاف إلى الإسلام ، وإذا قال (الذين أوتوا الكتاب) ببناء الفعل للمجهول ، فهو يقصد — غالباً — المتعصبين ، الذين أصروا على تكذيبهم بغياً وحسداً ، وقد يقصد مجرد التعريف ، نحو (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) وستأتى تتمة هذه القاعدة فى آخر سورة الإسراء ، فانتظرها هناك ، وشد عليها يد الضنين .

٦ ـ « سورة الأعراف »

قال الله تعالى (ورحمتى وسعت كل شىء) فى الدنيا (فسأكتبها) فى الآخرة (للذين يتقون) الله (ويؤتون الزكاة) خصت بالذكر ، تنبيها على أهميتها (والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبى الأمى) محمداً صلى الله عليه وسلم (الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل) باسمه ونعته ، وبيان علاماته التى لا تنطبق على غيره ، ومنها (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات) التى حرمت عليهم فى شرعهم ، كلحم الإبل ، وشحم البقر والغنم على التفصيل المذكور فى قوله تعالى (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر) الآية (ويحرم عليهم الخبائث) كالميتة والخنزير والخمر . ويؤخذ من الآية أن ما أحله النبى صلى الله عليه وسلم أو حرمه يجب التزامه

ولو لم يكن فى القرآن ، ومن هنا قال صلى الله عليه وسلم (ألا وإن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله (ويضع عنهم إصرهم) ثقلهم (والأغلال) القيود (التى كانت عليهم) كوجوب قتل النفس فى التوبة ، حسبما تقدم فى سورة البقرة وكتحريم صيد السمك يوم السبت ، حسبما يأتى فى قوله تعالى (واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر) الآية ، إلى غير ذلك من التشديدات التى كانت فى شريعتهم ، حتى أنهم أبوا قبول التوراة لشدة أحكامها عليهم ، فرفع الله الجبل وهددهم بإسقاطه عليهم إن لم يقبلوها . قال تعالى (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون) بخلاف شريعتنا ، فإن تعاليمها سهلة ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام (بعثت بالحنيفية السمحة) (فالذين آمنوا به) منهم (وعزروه) وقروه(ونصروه) بأنفسهم وأموالهم (واتبعوا النور) القرآن (الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون) الفائزون ، لا غيرهم ممن بقى على يهوديته أو مسيحيته ويلاحظ هنا أن الله سمى القرآن نوراً، وكذا سماه فى عدة آيات . والنور إشراق لا إحراق معه ، يشير إلى سماحة تعاليمه ويسر أحكامه ، فهو مشرق غير محرق مثل نور القمر .

أما التوراة ، وإن سماها الله نوراً ، فقد بين نوع نورها فى سورة الأنبياء ، بقوله تعالى (ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين) فهى ضياء ، والضياء إشراق ، فيه إحراق . فهو يشير إلى شدة تعاليمها ، وثقل أحكامها .

وتتبين لك صحة هذه الملاحظة ، حين تقرأ قوله تعالى — فى سورة يونس — (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً) هذا . وبعد أن سجل الله تعالى بعض صفات نبيه فى التوراة والإنجيل ، بين عموم رسالته ، فقال (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته) القرآن . أخذ منه بعض المفسرين أنه رسوله إلى نفسه ، وهذا ليس خاصاً به ، بل يعم الأنبياء أيضاً ، ضرورة أن كل نبي مكلف بالإيمان بما أوحى إليه ، وبالعمل به (واتبعوه لعلكم تهتدون) ذكر من أسمائه هنا : الرسول النبي الأمى . وهذا الاسم الأخير ، يشير إلى معجزة مادية ،

دونها معجزة كل نبي . لأن إتيان الأمي بكتاب يعجز الثقلين ، مع كونه أعلم الخلق بما تضمنه ، إعجاز جاوز حد النهاية ، فلا معجزة إلا وهي دونه . قال البوصيري .

كفاك بالعلم في الأمي معجزة من النبي وبالتأديب في اليتم

صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا ليلة ، فدعا أهل مكة ، فخذا . فخذا . يابني فلان يا بني فلان . يدعوهم إلى الإيمان ، ويحذرهم بأس الله . فقال بعضهم لبعض : إن صاحبكم لمجنون ، بات يهوت — يصوت — إلى الصبح . فأنزل الله تعالى — يدافع عنه — (أ) عموا (ولم يتفكروا) فيعلموا (ما بصاحبهم) الذي عرفوه بكمال العقل ورجاحته (من جنة) أي جنون (إن) نافية بمعنى ما (هو إلا نذير مبين) بين الإنذار وهذا — كما قلنا — من دلائل عناية الله بنبيه صلى الله عليه وسلم .

٧ — « سورة الأنفال »

ذكر الله تعالى إمداد نبيه عليه الصلاة والسلام بالملائكة في غزوة بدر ، وسبق الكلام على ذلك . ومما ذكر هنا — ولم يأت في آل عمران — أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ كفاً من حصى — قبيل بدء القتال — ورمى بها في وجوه الكفار ، وهم ألف ، فأصابت عيونهم جميعاً وشغلتهم فكانت معجزة ، سجلها الله بقوله تعالى (وما رميت) أعين الكفار (إذ رميت) بالحصى ، لأن كفا من الحصى لا يصيب عيون جيش كبير ، برمية بشر (ولكن الله رمى) بإيصالها إلى عيونهم ، فهي معجزة أيدك الله بها . وإليها أشار البوصيري بقوله :

ورمى بالحصى فأقصد[1] جيشاً ما الحصى عنده ؟ وما الإلقاء ؟

وهذه إحدى المعجزات المادية التي اقتضاها الحال ، كما أشرنا إليه في سورة الأنعام . بل قتال الملائكة ببدر ، معجزة مادية أيضاً ، شاهدها الصحابة والمشركون وحدثوا عنها[2]

---

(١) أي أصاب ، يقال أقصد شيئاً : أصابه .

(٢) قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) .

ولما أسلم الأنصار ، علمت قريش أن أمر النبي صلى الله عليه وسلم فى ازدياد ، وأن دينه فى علو مستمر . فاجتمع زعماؤهم وزعماء غيرهم من مشركى مكة ، فى دار الندوة ، للتشاور فى شأنه ، وحضر معهم إبليس لعنه الله ، فى صورة شيخ نجدى . وتبادلوا الرأى ، وانتهوا إلى قتله عليه السلام . فبعث الله إليه جبريل عليه السلام ، يخبره بائتمار القوم به ، وبأن الله يأذن له فى الهجرة . فترك صلى الله عليه وسلم عليا رضى الله عنه ، ينام فى فراشه ، وقال له (لن يصيبك أذى) وخرج من البيت ، والمشركون محدقون به ، وقرأ أول سورة يس ، حتى بلغ (فأغشيناهم فهم لا يبصرون) وأخذ كفاً من تراب ، ورماهم بها ، وهو يقول (شاهت الوجوه) فأخذهم النوم ، ومضى لحال سبيله ، ولم يروه ولا شعروا به ، إلا فى اليوم الثانى ، حين أخبرهم مخبر أن محمداً ذهب ولم يروه ، وأنه رماهم بكف من تراب . فقاموا ينفضون التراب عن رؤسهم ، وانصرفوا خائبين ، لم ينالوه بأى أذى وهذه هى معجزة مادية ، سجلها الله تعالى ، وهو يذكر نبيه بنعمته عليه (و) اذكر (إذ يمكر بك الذين كفروا) يحتالون فى أذيتك ، ويتشاورون فى القضاء

قال الزمخشرى : وحد الضمير — يعنى فى دعاكم — كما وحده فيما قبله — يعنى يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون — لأن استجابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كاستجابته ، وإنما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد . والمـــراد بالاستجابة الطاعة والامتثال . وبالدعوة البعث والتحريض . وروى أبو هريرة : أن النبى صلى الله عليه وسلم مر على باب أبى بن كعب ، فناداه وهو فى الصلاة ، فعجل فى صلاته ، ثم جاء . فقال (ما منعك عن إجابتى ؟) قال : كنت أصلى . قال (ألم تخبر فيما أوحى إلى استجيبوا لله وللرسول) ؟ قال : لا جرم لا تدعونى إلا أجبتك . وفيه قولان : أحدهما : أن هذا مما اختص به رسول الله صلى الله عليه وسلم . والثانى : أن دعاءه كان لأمر لم يحتمل التأخير . وإذا وقع مثله المصلى فله أن يقطع صلاته . قلت : الحديث صحيح ، وهو يفيد وجوب إجابة الرسول مطلقا ، لا فى خصوص أمر واجب التعجيل . ولهذا أورده من كتب فى الخصائص كالبلقينى والسيوطى والقسطلانى وغيرهم مستدلين به على وجوب إجابة النبى صلى الله عليه وسلم ، على المصلى ولو كان يصلى فريضة وهو مذهب المالكية والشافعية . وحكاه الزمخشرى كما مر فى كلامه ، وهو حنفى . فإجابته عليه الصلاة والسلام طاعة مفترضة .

عليك ، وهم بدار الندوة (ليثبتوك) يحبسوك (أو يقتلوك) كلهم بأن يضربوك بسيوفهم ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمك فى قبائل العرب ، ولا يستطيع بنو هاشم مقاتلتهم ، فيضطرون إلى قبول ديتك . وهذا رأى أبى جهل وأيده الشيخ النجدى لعنهما الله (أو) يركبوك بعيراً و (يخرجوك) من مكة (ويمكرون) بك (ويمكر الله) بهم، بأن نقض ما أبرموا . فنجاك وخيبهم (والله خير الماكرين) أقدرهم على مجازاتهم . جرت سنة الله مع المكذبين - إذ تحدوا رسولهم - أن يهلكهم ، ورسولهم حى ، ليشفى صدره بهلاكهم ، فأهلك قوم نوح بالطوفان ، وقوم هود بالصيحة ، وقوم صالح بالريح الصرصر ، وقوم لوط بالقذف ، وقوم شعيب بالظلة ، وفرعون بالغرق ، وقارون بالخسف ، إلى غير ذلك . لكن لما بعث نبينا صلى الله عليه وسلم ، رفع الله القذف والمسخ والخسف وسائر أنواع العذاب التى عذب بها الأمم السابقة ، إكراماً له، وجعل وجوده عليه الصلاة والسلام ، مانعاً من نزول العذاب بأمته ، رغم طلبهم له . اقرأ قوله تعالى (وإذ قالوا) أى كفار مكة (اللهم إن كان هذا) القرآن (هو الحق) المنزل (من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) كالخسف أو الغرق ، وهذا نهاية العناد والتحدى . قال الله تعالى يخاطب نبيه (وماكان الله ليعذبهم وأنت فيهم) فوجودك مانع من نزول العذاب الذى طلبوه ، لأن الحكمة اقتضت إمهالهم ليتم أمرك ، ويظهر دينك . وإنما يعذبهم عذاباً لا استئصال فيه ، بأن ينصرك عليهم فى الجهاد كما فى آية الإمداد بالملائكة ، وكما فى قوله تعالى (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم) الآية . أما قوله تعالى (وماكان الله معذبهم وهم يستغفرون) حيث يقولون فى طوافهم : غفرانك ،غفرانك فهو يشير إلى مانع آخر يمنع من عذابهم ، وهو كونهم فى حرم الله ، يطوفون به ، ويستغفرونه ، لكن هذا ليس بدائم ، بل هو مرتبط ببقائهم بمكة ، حيث يطوفون ويستغفرون ، فلما أراد تعذيبهم ، أخرجهم إلى بدر ، حيث أصابهم القتل والأسر والهوان . ثم تتابعت عليهم النكبات ، فى كثير من الغزوات ، حتى فتح الله مكة ، وطهرها من الشرك والمشركين .

ومن هنا لم يؤكد النفى فى جانب استغفارهم ، وأكد بلام الجحود فى جانب النبى

صلى الله عليه وسلم ، إيذانا بدوام ما نعيته . فلا خسف ولا مسخ ولا عذاب استئصال ، فى الأمة المحمدية ، نعم ثبت فى الأحاديث الصحيحة ، وقوع المسخ لأفراد من هذه الأمة باستحلالهم الخمر والزنا وبعض المنكوات فى آخر الزمان ، قرب قيام الساعة . كما وقعت حوادث فردية ، أعرف منها ثلاثة : حادث ذكرته فى كتابى (واضح البرهان على تحريم الخمر فى القرآن) والثانى ذكره العلامة أبو عبدالله محمد بن النعمان التلمسانى فى كتابه مصباح الظلام فى المستغيثين بخير الأنام فى اليقظة والمنام) والثالث ذكره الشعرانى فى الباب الثانى عشر من (المنن الكبرى) والسبب فى الحوادث الثلاثة ، سب الشيخين رضى الله عنهما .

قوله تعالى (فكلوا مما غنمتم حلالا طيباً) يصرح بإحلال الغنائم للأمة المحمدية ، وهذا مما فضل به نبينا صلى الله عليه وسلم على الأنبياء ، كما فى الحديث المار فى سورة آل عمران وكان من قبلنا إذا غنموا غنائم ، جمعوها . فى مكان ، فتأتى نار من السماء فتأكلها . كذلك جاء مبيناً فى حديث الصحيحين ، عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم .

٨ـ « سورة التوبة »

دعا النبى صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى غزوة تبوك ، وكانوا فى عسرة وضيق ، وكان الوقت شديد الحر ، فشق عليهم ذلك ، وتأخر كثير منهم عن الخروج ، فأنزل الله تعالى فى لومهم (يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم) تباطأتم عن الجهاد ، وأخلدتم (إلى الأرض) والاستفهام للتوبيخ والإنكار (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة) بدل نعيمها (فما متاع الحياة الدنيا فى) مقابلة (الآخرة إلا قليل حقير (ألا تنفروا) مع الرسول (يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم) يأت بهم بدلا عنكم (ولا تضروه شيئاً والله على كل شىء قدير) ومنه عذابكم واستبدال قوم غيركم (ألا تنصروه) أى النبى صلى الله عليه وسلم (فقد نصره الله إذ) حين (أخرجه الذين كفروا) حملوه على الخروج من مكة ، لما اجتمعوا بدار الندوة، واتفقوا على قتله (ثانى اثنين) حال كونه أحد (اثنين والثانى أبو بكر الصديق رضى الله عنه (إذ هما فى الغار) بجبل ثور (إذ يقول لصاحبه) الذى رأى الكفار مقابل الغار ، يبحثون عنهما

فقال : يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا . فأجابه (لا تحزن إن الله معنا) وما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ ! (فأنزل الله سكينته عليه) أى أدام نزول طمأنينته عليه (وأيده بجنود لم تروها) يعنى الملائكة . فالله الذى نصره فى هذا الموطن الدقيق الحرج لا يتخلى عنه أبداً . وفى هذا إشارة إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم موعود من الله بالنصر فى جميع المواطن ، كما تقدم فى سورة النساء ، وهذا مما خص به نبينا صلى الله عليه وسلم .

لما عزم النبي صلى الله عليه وسلم على الخروج إلى تبوك . استأذنه بعض المنافقين فى التخلف ، لأعذار أبدوها . فأذن لهم فيه ، لسببين :

(أحدهما) أن الله لم يتقدم إليه فى ذلك بأمر ولا نهى .

(ثانيهما) أنه لم يرد أن يجبرهم على الخروج معه ، فقد يكون فى خروجهم على غير إرادتهم ضرر . فأنزل الله تعالى . يبين له أن ترك الإذن لهم كان أولى ، لما يترتب عليه من انكشاف الصادق من الكاذب فيما أبدوه من الأعذار . واستفتح ما أنزله بجملة دعائية . هى قوله (عفا الله عنك) على عادة العرب ، فى استفتاح كلامهم بهذه الجملة . أو بقولهم : غفر الله لك ، أو : جعلت فداك أو نحوها ، يقصدون تكريم المخاطب إذا كان عظيم القدر ، ولا يقصدون المعنى الوصفى للجملة . فالآية - بحسب الأسلوب العربى - تفيد تكريم النبى وتعظيمه ، خلافاً لمن وهم فقهم منها عتابه أو تأنيبه . لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يخالف أمراً ولا نهياً ؛ فيستوجب ما فهمه ذلك الواهم . وقوله تعالى (لم أذنت لهم ؟) وهلا تركتهم (حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) هو محط البيان المذكور ، وأولوية ترك الإذن ، سياسية ، لا علاقة لها بالدين . والمقصود أن أسلوب الآية ، من الأساليب التى تفيد تعظيم الله لنبيه ، حين يخاطبه .

تكلم جماعة من المنافقين فى النبى صلى الله عليه وسلم بما لا يليق ، فقال بعضهم لبعض : كفوا عن هذا الكلام ، لئلا يبلغه ، فيؤذينا . فقال الجلاس - بضم الجيم وتخفيف اللام - ابن سويد : نقول ما شئنا ، ثم نأتيه ، فنكر ونحلف ، فيصدقنا . فإنما محمد أذن . فأنزل الله تعالى يفضحهم ، ويدافع عن نبيه (ومنهم) أى المنافقين (الذين يؤذون النبى) بعيبه وذكره

بوصف النبوة تكريما له . وتصوير القبح إذايتهم ، لأن إذاية النبي أقبح من إذاية جميع الناس ، إذ هي إذاية لله تعالى (ويقولون) إذا نهوا عن ذلك (هو أذن) يسمع كل قول ويقبله ، فإذا حلفنا له أننا لم نقل ، صدقنا ، وفي هذا وصفه بالغفلة . قال الله تعالى (قل) هو (أذن خير لكم) مستمع خير ، يغضى عن الشر تكرما (يؤمن بالله ويؤمن) يصدق (للمؤمنين) فيما أخبروه ، لا لغيرهم (ورحمة للذين آمنوا منكم)أى أظهروا الإيمان منكم معشر المنافقين ، فهو يرفق بكم ، ولا يكشف أسراركم ، لكن لا يصدقكم . ثم توعدهم تعالى بقوله (والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) وإذا وازنت هذه الآية بقوله تعالى (وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم) الآية ، وجدت رتبة كليم الله ، دون رتبة حبيب الله بمراحل[1] .

ثم قال تعالى ـ بعد آيات في الموضوع ـ (يحلفون بالله ما قالوا) ما بلغك عنهم من سبك والعيب فيك (ولقد قالوا كلمة الكفر) حيث قال الجلاس : إن كان محمد صادقاً فيما يقول ، فنحن شر من الحمير . وقال عبد الله بن أبي بن سلول : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . أفادت الآية أن العيب في النبي صلى الله عليه وسلم كفر ، وسبق ذلك في سورة النساء (وكفروا بعد إسلامهم) أى أظهروا الكفر ـ وهو العيب

---

(١) قال الزمخشري في هذه الآية : الأذن الرجل الذي يصدق كل ما يسمع ، ويقبل قول كل أحد . سمي بالجارحة التي هي آلة السماع ، كأن جملته أذن سامعة ونظيره قولهم للربيئة : عين . وإيذاؤهم له ، هو قولهم فيه : أذن. وأذن خير ، كقولك : رجل صدق . تريد الجودة والصلاح كأنه قيل : نعم هو أذن . ولكن نعم الأذن . ثم فسر كونه أذن خير بأنه يصدق بالله ، لما قام عنده من الأدلة ، ويقبل من المؤمنين الخلص من المهاجرين والأنصار . وهو رحمة لمن آمن منكم أى أظهر الإيمان أيها المنافقون . حيث يسمع منكم . ويقبل إيمانكم الظاهر ، ولا يكشف أسراركم ، ولا يفضحكم ، ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين ، مراعاة لما رأى الله من المصلحة في الإبقاء عليكم . فهو أذن كما قلتم ، إلا أنه أذن خير لكم ، لا أذن سوء . فسلم لهم قولهم فيه إلا أنه فسره بما هو مدح له ، وثناء عليه . وإن كانوا قصدوا به المذمة والتقصير بفطنته وشهامته ، وأنه من أهل سلامة القلوب والغرة اهـ وهو نفيس .

فى النبى - بعد إظهارهم الإسلام ، لأنهم منافقون (وهموا بما لم ينالوا) من الفتك بالنبى صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة ، عند عودته من تبوك ، وكانوا اثنى عشر رجلا هموا بذلك ، فأعلمه الله بما هموا به ، فأخذ حيطته وأبطل مكيدتهم . وهذا مما اختص الله به نبينا ، حيث يعلمه بما يدبر أعداؤه من مكايد لاغتياله ، فلا يصلون إلى مرادهم ، ويرجعون خائبين . على حين أن كثيراً من الأنبياء قتلوا بأيدى أعدائهم ، كما قال تعالى (وكأين من نبى قتل) بالبناء للمجهول (وما نقموا) من النبى حيث أرادوا قتله (إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) بالغنائم ، بعد أن كانوا فى جهد وفاقة ، فلم ينلهم من النبى إلا الغنى ، وهو مما يحب . فالآية من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم ، وهو نوع من البلاغة معروف ، كأنه قيل : ليس فى النبى ما يعاب ، إلا أنه أغناهم بعد الفاقة ، وهذا لا يعاب فهو ، إذن لا عيب فيه .

ونزل فى مزينة وجهينة - بالتصغير - وكانوا مؤمنين ، ينفقون مالهم فى الجهاد ونحوه ، يقصدون ثواب الله تعالى ، ودعاء النبى لهم (ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق) فى سبيل الله (قربات) تقربه (عند الله و) وسيلة إلى (صلوات) دعوات (الرسول) له (ألا إنها) نفقتهم (قربة لهم) عند الله (سيدخلهم الله فى رحمته) جنته (إن الله غفور رحيم) أفادت الآية أن استجلاب دعاء النبى صلى الله عليه وسلم بعمل الطاعة ، من مقاصد التقرب إلى الله تعالى ، الموجبة لرضاه . يؤكد هذا قوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) بأخذها (وصل عليهم) ادع لهم ، فأمرهم بالدعاء لهم ، وعلل هذا الأمر بقوله تعالى (إن صلاتك سكن لهم) طمأنينة لقلوبهم ، ورحمة لهم (والله سميع عليهم) فى هذه الجملة إشارة إلى أن دعاءه عليه الصلاة والسلام ، مسموع عند الله سماع قبول .

وقال تعالى - بعد الإخبار بقبول توبة المتخلفين عن تبوك من المؤمنين - (ما كان) يصح (لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله) إذا خرج لغزوة (ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه) بأن يصونوها عما رضيه لنفسه من الشدائد .

أى لا يجوز لهم ذلك ، فهو نهى فى صيغة خبر ، للدلالة على تأكده وثبوته .

ويؤخذ منه أن الواجب على المؤمنين أن يؤثروا نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على أنفسهم ، لأنها نفس كريمة على الله تعالى .

وقال عز وجل (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) أى منكم تعرفونه وتعرفون نسبه فيكم (عزيز) شديد (عليه ما عنتم) ما مصدرية ، أى شديد عليه عنتكم ومشقتكم (حريص عليكم) أى على هدايتكم (بالمؤمنين رءوف رحيم) يريد الخير لهم ، والرأفة شدة الرحمة . قال الحسين بن الفضل : لم يجمع الله لأحد من أنبيائه اسمين من أسمائه تعالى إلا للنبي صلى الله عليه وسلم ، فسماه (رءوفاً رحيماً) وقال (إن الله بالناس لرءوف رحيم) قلت : سماه فيما سبق نوراً أيضاً ، وقال (الله نور السموات والأرض)[1] .

٩ — سورة يونس عليه السلام

رد الله تعالى على المشركين الذين كذبوا بالقرآن الكريم ، وزعموا أنه مفترى . فقال سبحانه (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) لأنه لا يقدر على أن يقوله بشر من قبل نفسه ، ولو كان أبلغ الناس وأفصحهم (ولكن) كان (تصديق الذى بين يديه) من الكتب (وتفصيل الكتاب) تبيين ما كتبه الله من الأحكام والغيوب والأخبار وحقائق العلوم (لا ريب فيه من رب العالمين) ثم صرح بدعواهم الباطلة (أم يقولون افتراه) محمد صلى الله عليه وسلم ؟ (قل فأتوا بسورة مثله) فى فصاحة تراكيبها ، وبلاغة أساليبها ، وإحكام مبانيها ، وسمو معانيها (وادعوا من استطعتم من دون الله) من آلهتكم وأنصاركم (إن كنتم صادقين) فى أنه افتراه . وبالضرورة لم يستطيعوا ، لأن القرآن فوق قدرة البشر ، وقد نوع الله التحدى بالقرآن . فتحدى بسورة منه كما فى هذه الآية ، وهى صادقة بأقصر سورة كالكوثر . وتحدى بعشر سور منه ، فى قوله تعالى (قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) وبحديث مثله ، فى قوله تعالى

---

(١) وسماه كريما فى سورة الحاقة (إنه لقول رسول كريم) والكريم من أسمائه الحسنى ، وسماه مبيناً فى سورة الدخان (وقد جاءهم رسول مبين) وقال تعالى (ويعلمون أن الله هو الحق المبين) .

(فليأتوا بحديث مثله) وهو صادق بالكثير والقليل منه ، وأعم من التحدى بسورة ، وبجميعه ، فى قوله تعالى (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) وذلك لإظهار فضيلة نبيه ، بعلو معجزته على جميع المعجزات ، وبقائها ما بقيت الأرض والسموات .

١٠ — سورة الرعد

عاب أهل الكتاب على النبي صلى الله عليه وسلم كثرة الزوجات ، وقالوا ـ كما تقدم ـ لو كان نبياً لترك النساء ، وزهد فى الدنيا . فرد الله عليهم بقوله تعالى (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية) كإبراهيم ويعقوب وداود وسليمان عليهم السلام ، فليس النبي صلى الله عليه وسلم بدعاً منهم . والزواج لا ينافى الزهد ، وإنما ينافيه التوسع فى المباحات من المطعومات وغيرها . والنبى صلى الله عليه وسلم ، كان يعيش عيشة الكفاف والتقلل ، كما هو معروف من سيرته . فكان يمر الشهر والشهران لا يوقد فى بيته نار لطبخ ، إن هما إلا الأسودان : التمر والماء ، كما تقول عائشة رضى الله عنها . وكانت الأموال تأتيه من الفىء والمغانم ، فيفرقها ويبيت على الطوى . ويأتيه السائل ، فلا يجد ما يعطيه ، فيأمره أن يستدين على حسابه . وانتقل صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، ولم يضع لبنة على لبنة فى بناء ، سوى بيته الذى كان يسكنه . ولم يترك ديناراً ولا درهما ، ومن أعجب أحواله صلى الله عليه وسلم ، أنه فرق أموالا جاءته فى بعض المرات ، وبقيت منها دراهم دون العشرة ، نسيها . فأخذه تلك الليلة أرق ، وهـــو يقول لعائشة (مالى ؟) حتى تذكر الدراهم المتبقاة ، فبعث بها إلى من يستحقها ، وقال (ما كان ظن محمد بربه أن ينام وفى بيته هذه الدراهم ؟) ثم نام قرير العين . فأى زهد يوازى هذا أو يقاربه ؟ ! .

وقال الكفار من المشركين والكتابيين : لو كان رسولا ، لأتى بما نطلبه من الآيات فرد الله عليهم بقوله تعالى (وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله) لأن الرسل عبيد لله تعالى ، لا يقدرون على شىء إلا بإرادته سبحانه .

وقالوا أيضاً : لو كان رسولا ، لحصل ما توعدنا به من العذاب على تكذيبه . فرد عليهم بقوله تعالى (لكل أجل كتاب) وعند انتهاء الأجل المكتوب ، ينزل بهم ما أوعدوا به من العذاب . وقد حصل ذلك فى غزوة بدر وخيبر وغيرهما .

وقالوا أيضاً : لو كان صادقاً ما نسخ الأحكام التى جاءت فى التوراة والإنجيل . فرد عليهم بقوله سبحانه (يمحوا الله ما يشاء) من الأحكام (ويثبت) ما يشاء منها (وعنده أم الكتاب) وهو اللوح المحفوظ المشتمل على الكتب المذكورة بأحكامها الممحوة والثابتة .

قال تعالى (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) فهذه أربع آيات ، رد الله بها شبه الكفار ودعاويهم ، ثم أتبعها برد دعوى خامسة ، فقال تعالى (ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب) من منصفى اليهود والنصارى . وهذا يفيد عناية الله بنبيه ، فى دفع ما يورد عليه من دعاوى وشبه ، ولم يحصل مثله لنبى ولا رسول قبله .

١١ — سورة الحجر

قال الله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) تولى الله حفظ كتابه ، فلا يدخله تبديل ولا تحريف . ولا زيادة ولا نقص . فهو باق ما بقى الدهر ، مصدر السعادة ، ومنهل العرفان ، ومرشد الضال ، وهادى الحيران . وفى هذا تكريم لنبينا صلى الله عليه وسلم بدوام معجزته ، وخلود شريعته . على حين أن التوراة ، وكل الله حفظها إلى أحبار اليهود ، كما فى سورة المائدة ـ آية ٤٤ ـ فحرفوها وغيروا كثيراً من أحكامها ، وكذلك حصل فى الإنجيل[1] . فلا يوجد كتاب سماوى سالم من التحريف ، سوى القرآن الكريم[2] .

---

(١) بل لم يكتب الإنجيل ، كما نبهنا عليه فى أول التعليقات .

(٢) وقال الزمخشرى (إنا نحن نزلنا الذكر) رد لإنكارهم واستهزائهم فى قولهم (يا أيها=

(تنبيه) استدل الحافظ ابن حزم بالآية المذكورة ، على حفظ السنة أيضاً من التبديل والضياع . وهو استدلال ظاهر ، لأن السنة وحى كالقرآن ، إلا أنها وحى غير متلوّ . ولأنها بيان لما فيه من الأحكام والمعانى ، كما قال تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) الآية ، والبيان يجب أن يكون محفوظاً كما حفظ المبين . وقد قيض الله للسنة رجالا حفظوها غاية الحفظ ، وضبطوها نهاية الضبط ، فلا يحكمون لحديث بالصحة ، حتى يمر بمراحل من النقد والتمحيص ، تبتدىء برواته واحداً واحداً من حيث العدالة والثقة ، ومشافهة كل راو لشيخه . ثم تنتهى بالمتن من حيث سلامة معناه من النكارة ، ولفظه من الشذوذ والإدراج . فإن حصل عندهم أدنى شبهة فيه ، حكموا عليه بالضعف أو النكارة أو الوضع ، حسبما تقتضيه الشبهة قوة وضعفاً . ولقد بلغ من شدة تحريهم وتيقظهم أنهم يستخرجون كلمة من الحديث فيحكمون بوضعها وحدها مثل حديث (طلب العلم فريضه على كل مسلم ومسلمة) حكموا بوضع (مسلمة) لأنهم توصلوا ببحثهم إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقلها . وكذلك كلمة (ثلاث) من حديث (حبب إلى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وجعلت قرة عينى فى الصلاة) حكموا بوضعها أيضاً ، للسبب المذكور . ومثل هذا كثير ، لا يدركه إلا من تعمق فى علوم السنة المطهرة ، وكان من جملة خدمتها ، جعلنا الله منهم بمنه .

وقال سبحانه (لعمرك إنهم) أى قوم لوط أو قريشاً (لفى سكرتهم يعمهون)

الذى نزل عليه الذكر) وكذلك قال : إنا نحن . فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع والبتات، وأنه هو الذى بعث به جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وبين يديه ومن خلفه رصد ، حتى نزل وبلغ محفوظا من الشياطين ، وهو حافظه فى كل وقت من كل زيادة ونقصان ، وتبديل وتحريف . بخلاف الكتب المتقدمة ، فإنه لم يتول حفظها ، وإنما استحفظها الربانيين والأحبار ، فاختلفوا فيما بينهم بغياً ، فكان التحريف . ولم يكل القرآن إلى غير حفظه . فإن قلت : فحين كان قوله : إنا نحن نزلنا الذكر . رداً لإنكارهم واستهزائهم ، فكيف اتصل به قوله (وإنا له لحافظون) ؟ قلت : قد جعل ذلك دليلا على أنه منزل من عنده آية ، لأنه لو كان من قول البشر ، أو غير آية . لتطرق عليه الزيادة والنقصان ، كما يتطرق على كل كلام سواه ا هـ . قلت : فالآية من قبيل دفاع الله تعالى عن نبيه صلى الله عليه وسلم .

يترددون . لعمرك كلمة قسم . أى وحياتك . أقسم الله بحياة نبيه عليه الصلاة والسلام ، ولم يقسم بحياة نبي غيره ، ولا رسول ولا ملك ، وهذا تشريف كبير ، لا يحتاج إلى بيان قال ابن عباس ـ فى لعمرك ـ :

معناه : وحياتك يا محمد . وقال : ما خلق الله نفساً أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم ، وما أقسم بحياة أحد إلا بحياته . وذهب بعض المفسرين إلى أن فى الآية حذفاً ، تقديره : قالت الملائكة : لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون ، والخطاب موجه إلى لوط عليه السلام ، فهم يقسمون بحياته على أن قومه يعمهون . وهذا قول ضعيف ، رده الإمام ابن القيم فى (أقسام القرآن) وأجاد . ومما يؤيد ضعفه أنه يحتاج إلى تقدير ما سبق ، وعدم التقدير أولى لأنه الأصل ، وأيضاً إذا احتمل كلام فى القرآن أن يكون كلام الله تعالى،أو محكيا على لسان ملك أو نبي مثلا ، فالواجب حمله على الأول،ولا يصرف إلى الثانى إلا لدليل قوى . وأيضا فالمناسب أن يكون هذا القسم من إنشاء الله تعالى عظم به أفضل مخلوق عنده ،كما أنشأ أقساما غيره ببعض مخلوقاته ، تعظيما لها أو تنبيها على ما أودع فيها من الفوائد والحكم ، وأيضا فكيف يصح ادعاء إقسام الملائكة بحياة لوط ؟ ومن أين يأتى به مدعيه ؟ ولم يرد به حديث ولا أثر ؟ وأيضا ففى حمل الآية عليه تخريج لها على معنى دائر بين الحرمة والكراهة وهو الإقسام بغير الله تعالى . هذا إن صح أن الملائكة أقسموا بحياة لوط عليه السلام ، لكنه لم ينقل ، على أن الملائكة عليهم السلام أعرف بعظمة الله وبجلاله ، فكيف يقدموا على الحلف بغيره ؟ !

فإن قيل : قد أقسم الله بالشمس والقمر والنجم والضحى والنهار والليل ونحو ذلك. فهل هذا يقلل من قيمة القسم فى هذه الآية ؟ فالجواب : أن الله تعالى أقسم بالأشياء المذكورة وما فى معناها من بعض المأكولات أو البلاد أو العصر . ليدل على عظيم قدرته ، وكبير فضله ومنته . لتسخير هذه المخلوقات لمنفعتنا ، وإيجادها لمصلحتنا .

قال تعالى (وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار) وقال سبحانه (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه) فكان فى الإقسام بها تذكير لنعمة الله علينا،

فيها . أما القسم الذى يقتضى تعظيم المقسم به فلا يكون إلا بالله ، أو بإحدى صفاته ، نحو (قل بلى وربى لتبعثن) ونحو (ق والقرآن المجيد) وهذا هو المراد هنا . فإن الله تعالى عظم نبيه ، حين أقسم بحياته المليئة بالخيرات والبركات ، حياة أنقذ صاحبها العالم من ظلمات الجهل والشرك والظلم والفوضى ، إلى نور العلم والتوحيد والعدل والنظام . وقام لله بحق طاعته والدعوة إليه . وكان مربى رجال ، ومنشىء شعوب ، ومهذب نفوس ومعلم أخلاق . فلا جرم أن كرمه مولاه بهذا التكريم ، واختصه به . وقد استنبط منه الإمام أحمد أن الحلف بالنبي صلى الله عليه وسلم ينعقد ، وفيه الكفارة ، نقله الحافظ السيوطى فى (الإكليل فى استنباط التنزيل) .

وقال تعالى يمتن على نبيه ـ (ولقد آتيناك سبعاً من المثانى) هى الفاتحة (والقرآن العظيم) فى هذا تشريف يفوق ما أوتى النبيون جميعاً ، كما سبق فى المقدمة . وخصت الفاتحة بالذكر ـ مع أنها من القرآن ـ تنبيها على عظم شأنها بحيث يكون إيتاؤها وحدها كافيا فى التشريف ، لاشتمالها على معانى القرآن إجمالا ، حسبما بيناه فى كتاب (جواهر البيان فى تناسب سور القرآن).

كان النبي صلى الله عليه وسلم فى أول الأمر ، يدعو إلى الإسلام مختفياً ، ويأمر من آمن به بإخفاء إيمانه . ثم أمره الله تعالى بإعلان الدعوة (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) فأعلن صلى الله عليه وسلم الدعوة . وكان بعض المشركين يستهزئون به وهم الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والحر بن قيس ، والأسود بن المطلب ، والأسود بن عبد يغوث . فأنزل الله فى شأنهم (إنا كفيناك المستهزئين) الآية . فأصيب كل واحد منهم بداء مات به ميتة سوء ، وهلكوا فى أوقات متقاربة .

وهذا مما خص به نبينا . قال البوصيرى :

وكفاه المستهزئين وكم سا ۔ ء نبياً من قومه استهزاء

١٢ — سورة النحـــل

قال تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) وكل الله إلى نبيه تبيين القرآن ، وشرح ما فيه من الأحكام ، وتوضيح ما أجمله من المعانى وتفسير ما تضمنه من الإشارات . وهذه الآية تبطل نحلة أولئك المبتدعة الذين يردون ما صح عن النبي صـــلى الله عليه وسلم فى تفسير بعض ما أبهمه القرآن ، فلم يقبلوا الأحاديث الواردة فى نزول عيسى عليه السلام ، تفسيراً لقوله تعالى (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) ولم يقبلوا الأحاديث الواردة فى تعيين العبد ، فى قصة موسى بأنه الخضر عليهما السلام . ولم يقبلوا الأحاديث الصريحة بأن الرؤية فى قوله تعالى (ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى) حصلت من النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو عند السدرة ليلة المعراج ، يقظة لا مناماً ، إلى غير ذلك . مع أنه لو لم يكل الله إلى نبيه بيان القرآن ، لكان الواجب اتباع بيانه ، لأنه أعلم بمعانى ما أنزل إليه . بل قرر العلماء وجوب الرجوع إلى الصحابة فى التفسير ، وعللوا ذلك بأن الصحابة شاهدوا التنزيل ، وعرفوا المراد منه .

وقال سبحانه (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه) من أمور الدين (وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) هذه الآية تؤيد الآية السابقة وتؤكدها ، وكلتاهما تفيدان وجوب الرجوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى أمور الدين أصوله وفروعه ، وعلى هذا إجماع الأمة .

من الشبه التى زعم الكفار بسببها أن القرآن مفترى ، وجود الناسخ والمنسوخ فيه فرد الله عليهم ـ مبينا جهلهم ـ بقوله سبحانه (وإذا بدلنا آية مكان آية) بنسخها وإنزال غيرها (والله أعلم بما ينزل) جملة معترضة بين الشرط وجوابه ، أتى بها لتسليته صلى الله عليه وسلم عن قولهم فيه (قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون) حقية القرآن ، ولا فائدة النسخ التى ترجع لمصلحة المكلف ، إما بالتخفيف إن كان النسخ من أشد إلى خف ، وإما بكثرة الثواب إن كان من أخف إلى أشد ، مع قصد امتحانه ، ليختبر

عزمه على فعل ما أمر به . وجملة (بل أكثرهم لا يعلمون) تفيد أن أقلهم يعلمون حقية القرآن ، ولكنهم ينكرونه عناداً . فهم بين جاهل وجاحد .

ثم صرح بإبطال زعمهم ، فقال سبحانه (قل نزله روح القدس) جبريل عليه السلام (من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين) فى هذا تعريض بأنه خسار على غيرهم . كما قال تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً) .

ومما تعلق به الكفار فى إبطال القرآن ، دعواهم أن النبى صلى الله عليه وسلم تلقاه من حداد رومى ، كان نصرانياً ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يدخل عليه . فأبطل الله هذه الدعوى بقوله سبحانه (ولقد نعلم) أى علمنا (أنهم يقولون إنما يعلمه بشر) هو الحداد المذكور (لسان) أى لغة (الذى يلحدون) يميلون (إليه) أنه يعلمه (أعجمى) لأنه رومى (وهذا) القرآن (لسان عربى مبين) ذو فصاحة وبيان ، فكيف يعلمه أعجمى ؟ ! والتعبير بقد ، إشارة لتقليل القائلين لهذه الدعوى . وهذا يؤكد ما قدمناه أن الله تعالى تولى الدفاع عن نبيه ، فى جميع ما أورد عليه . عناية خاصة به ، دون سائر أنبيائه عليه وعليهم الصلاة والسلام . ثم عقب تعالى بقوله (إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) القرآن ، بقولهم : هو من قول البشر (وأولئك هم الكاذبون) فى قولهم يعلمه بشر . فى هاتين الجملتين عدة مؤكدات : إنما المفيدة لحصر الافتراء فيهم ، وإيراد الجملة الثانية معرفة الطرفين . وضمير الفصل ، وكون المسند إليه اسم إشارة للبعيد تحقيراً لهم . وكل هذه المؤكدات رد لقولهم السابق : إنما أنت مفتر[1] .

---

(١) قوله تعالى (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً) قال الزمخشرى : فى ثم هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإجلال محله . والإيذان بأن أشرف ما أوتى خليل الله إبراهيم من الكرامة ، وأجل ما أوتى من النعمة . اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ملته من قبل أنها دلت على تباعد هذا النعت فى المرتبة من بين سائر النعوت التى أثنى الله عليه بها . قال ابن المنير — تعليقا عليه — : وإنما تفيد ذلك ثم ، لأنها فى أصل وضعها لتراخى المعطوف عن المعطوف عليه فى الزمان ، ثم استعملت فى تراخيه عنه فى علو الرتبة =

١٣ - سورة الإسراء

قال الله تعالى - ينوه بمعجزة من أهم المعجزات التى أكرم بها نبيه صلى الله عليه وسلم - (سبحان الذى أسرى بعبده) محمد صلى الله عليه وسلم (ليلا) منصوب على الظرفية ، وصرح به - مع أن الإسراء لا يكون إلا بالليل - إشارة إلى تقليل مدته مع بعدالمسافة من (المسجد الحرام) بمكة (إلى المسجد الأقصى) بالشام (الذى باركنا حوله) بالمياه والثمار (لنريه من آياتنا) أى عجائب قدرتنا . وفى هذا إشارة إلى المعراج الذى رأى فيه من الآيات ما تحدث عنه فى الأحاديث المتواترة (إنه هو السميع البصير) فى هذه الآية دليل على أن الإسراء كان فى اليقظة حقيقة ، لا جولة روحية ، ولا رؤيا منامية . وبيان ذلك من وجوه :

(الأول) استفتاحها بالتسبيح الذى يقال عند الأمور العظيمة ، والخوارق العجيبة استعظاما لقدرة الله تعالى ، واعترافاً بنفاذ مشيئته .

(الثانى) لفظ (أسرى) فإنه نص فى الانتقال الجسمى . ولو كان روحياً لقال الله: أرى عبده ، كما قال سبحانه (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق) فقد كان صلى الله عليه وسلم رأى بالمدينة - قبل خروجه إلى الحديبية - أنه دخل مكة ، وطاف بالكعبة وحلق رأسه . إلخ فسماها الله رؤيا ، ولم يسمها إسراء ، لأنها كانت فى المنام . وكذلك قال فى غزوة بدر (إذ يريكهم الله فى منامك قليلا) ولما عبر هنا بأسرى علمنا أنه قصد مداوله الصريح .

= بحيث يكون المعطوف أعلى رتبة ، وأشمخ محلاما عطف عليه . فكأنه بعد أن عدد مناقب الخليل عليه السلام . قال تعالى : وههنا ما هو أعلى من ذلك كله قدراً ، وأرفع رتبة ، وأبعد رفعة . وهو : أن النبي الأمى الذى هو سيد البشر ، متبع لملة إبراهيم ، ومأمور باتباعه بالوحى ، متلو أمره بذلك فى القرآن العظيم . فى ذلك تعظيم لهما جميعاً ، لكن نصيب النبي صلى الله عليه وسلم من هذا التعظيم أوفر وأكبر ، على ما مهدناه .

(الثالث) لفظ (عبده) فإنه نص فى الشخص الجسمى المسمى بمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

(الرابع) لفظ (ليلا) الذى أتى ليدل على تحقيق معنى المعجزة ، لأن المسافة بين مكة وبيت المقدس ، بعيدة . ولذا قيل (المسجد الأقصى) وكان أهل مكة يقطعونها فى شهر ، على الإبل . فإذا قطعها النبى صلى الله عليه وسلم فى جزء من الليل بجسمه المادى كانت معجزة عظيمة ، تستحق التنويه والتسجيل .

(الخامس) قوله تعالى (لنريه من آياتنا) فإنه إنما يقال فيما يرى فى اليقظة رؤية حقيقية ، ولا يقال فيما يرى روحيا إلا بالتقييد ، كما فى قوله تعالى (إذ يريكهم الله فى منامك قليلا) .

(السادس) قوله (إنه هو السميع البصير) إن كان الضمير يعود على الله ـ وهو المشهور ـ فتذييل الآية بهذه الجلة ، يفيد أن الله تعالى كان مع نبيه فى هذه الرحلة الخارقة للمعتاد المتعارف للناس فى رحلاتهم منذ بدء الخليقة . واختيار هاتين الصفتين لإفادة كمال العناية ، وغاية التأييد والرعاية ، وهذا كما قال تعالى لموسى وهارون ، حين أبديا تخوفهما من طغيان فرعون ، (لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى) وإن كان الضمير يعود على النبى صلى الله عليه وسلم ـ كما قيل به ـ فالتذييل يفيد أنه عليه الصلاة والسلام كان سميعاً لما ألقى إليه ، بصيراً لما رآه من الآيات ، لم يدهش لبه ، ولا زاغ بصره . ولهذا قال تعالى ـ حين أشار إلى المعراج ـ (ما زاغ البصر وما طغى) .

(السابع) إن أهل مكة ـ وهم عرب فصحاء ـ فهموا من الإسراء معناه المعروف لهم فى لغتهم ، ولذلك كذبوا النبى صلى الله عليه وسلم حين أخبرهم به ، وزعموا أنه أتى بما لا يقبل ، وسألوه ــ امتحاناً ــ أن يصف لهم بيت المقدس ، لأنهم يعلمون أنه لم يذهب إليه قبل هذه الرحلة . بل ارتد بعض ضعفاء العقيدة ، عن الإسلام ، حين سمعوا بهذه المعجزة ، لأن عقولهم ضاقت عن قبولها .

(الثامن) أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقل لأهل مكة الذين كذبوه ، ولا لمن ارتد عن الإسلام : إن الإسراء كان مناماً أو جولة روحية ، فيريحهم من خطيئة

التكذيب ، وجريمة الارتداد . بل أقرهم على ما فهموه ، ووصف لهم بيت المقدس حين امتحنوه بالسؤال عنه . وما يروى عن عائشة رضى الله عنها أنها لم تفقد جسد النبي صلى الله عليه وسلم ، باطل مكذوب ، لأنها لم تبلغ إذ ذاك السنة الرابعة من عمرها . بل الثابت فى كتب السيرة والحديث أن أم هانىء أخت على رضى الله عنها ، فقدته تلك الليلة ـ وكان نائما عندها ـ فباتت قلقة عليه . خشية أن يكون اغتيل . حتى رجع عند الفجر ، وأخبرها برحلته ، فاطمأنت . وترجته ألا يحدث بها قريشاً لئلا يكذبوه .

أما قوله تعالى (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن) فلا يدل على أن الإسراء كان مناماً ، كما زعم من لا فهم له . بل يدل على نقيض ذلك ، وبيانه من وجوه :

(أحدها) أن الرؤيا أحد مصادر رأى البصرية . كما فى معاجم اللغة . ويستعمل أيضاً فى الرؤيا المنامية ، على سبيل الاشتراك اللفظى . والقاعدة فى المشترك ألا يجزم فيه بأحد المعانى إلا لدليل . والدليل هنا يقتضى أن الرؤيا بصرية ، وهو الآية السابقة والوجه الذى بعده ، وهو :

(ثانيها) قوله (فتنة للناس) أى أهل مكة ، حيث كذبوا بالإسراء ، وقالوا : نحن نذهب إلى بيت المقدس فى شهر ، ومحمد يزعم أنه أتاه فى ليلة ! ! ولو كانت الرؤيا منامية ما افتتنوا . لعلمهم أنها تتسع . لهذا ولأكثر منه ، وقد كان الواحد منهم يرى فى نومه أنه ذهب إلى الشام أو الحبشة أو فارس ، ويحدث بها أصحابه ، وربما التمس من يعبرها له ، ولا يرون فيها ما ينكر .

(ثالثها) قوله تعالى (والشجرة الملعونة فى القرآن) والمراد بها شجرة الزقوم ، لقوله سبحانه (أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم . إنا جعلناها فتنة للظالمين) ووجه فتنتهم بها قولهم . النار تحرق الشجر ، فكيف تنبته ؟ ! ! كذلك فتنوا بالإسراء ، وقالوا ما سبق .

فدلالة السياق ، تقتضى أن الرؤيا بصرية . وهو واضح .

قال الزمخشرى . فى الكشاف : قوله (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض)

إشارة إلى تفضيل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوله (وآتينا داود زبوراً) دلالة على وجه تفضيله ، وهو أنه خاتم النبيين ، وأن أمته خير الأمم ، لأن ذلك مكتوب فى زبور داود . قال الله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) وهم محمد وأمته اهـ .

جاء وفد ثقيف إلى النبى صلى الله عليه وسلم . وقالوا له : لا ندخل فى دينك ، حتى تعطينا خصالا نفتخر بها على العرب . لا نعشر ، ولا نحشر ، ولا نجبى فى صلاتنا [1] ، وكل ربا لنا فهو ثابت ، وكل ربا علينا فهو موضوع ، وأن تمتعنا باللات سنة ، حتى نأخذ ما يهدى لها ، فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا . وأن تحرم وادينا كما حرمت مكة .

فإن قالت العرب : لم فعلت ذلك ؟ فقل : إن الله أمرنى . فسكت النبى صلى الله عليه وسلم ، وطمعوا فى سكوته . فأنزل الله تعالى (وإن كادوا) قاربوا (ليفتنونك) يستنزلونك (عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره) مما طلبوه منك (وإذاً) لو أجبتهم (لاتخذوك خليلا . ولولا أن ثبتناك) بالعصمة (لقد كدت) قاربت (تركن) تميل (إليهم شيئاً) ركوناً (قليلا) لشدة احتيالهم وإلحاحهم عليك . والآية تفيد أنه عليه الصلاة والسلام ماركن ، ولا قارب ، لتثبيته بالعصمة . فهو عليه الصلاة والسلام معصوم المصادر والموارد . مؤيد فى الهمم والمقاصد (إذاً) لو قاربت الركون (لأذقناك ضعف) عذاب (الحياة وضعف) عذاب (الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً) يمنع العذاب عنك ، لأنك صفوة الكملة المختارين . فمقاربة الركون ـ لو حصلت منك ـ تستوجب التشديد . لعلو مقامك ، وإن كانت هى فى الواقع ليست بذنب ، وهذا نهاية ما يطلب فى تبرئة جنابه الشريف ، من قصد المخالفة .

وقال تعالى مخاطباً لنبيه (أقم الصلاة لدلوك الشمس) أى من وقت زوالها (إلى

---

(١) لا نعشر ، لا ندفع العشر ، يقصدون الزكاة ، ولا نحشر ، لا نذهب للجهاد ، ولانجبى ، بضم النون وفتح الجيم وكسر الباء المشددة ، لا نركع ولا نسجد فى الصلاة ، وواديهم الذى طلبوا تحريمه ، وادى وج ، ووج بفتح الواو وتشديد الجيم بلد بالطائف .

غسق الليل) إقبال ظلمته بمغيب الشفق ، وهذا يشمل الظهر والعصر والمغرب والعشاء (وقرآن الفجر) صلاة الصبح (إن قرآن الفجر كان مشهوداً) تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار ، ويؤخذ منه فضل صلاة الصبح ، وأن الملائكة متعبدون بحضور الصلاة معنا . وهذا من خصائص هذه الأمة (ومن الليل فتهجد به نافلة لك[١]) فريضة زائدة خاصة لك (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) يحمدك فيه جميع المخلوقات ، وهو مقام الشفاعة فى فصل القضاء . وعسى من الله ، تفيد وجوب الوقوع ، فالمقام المحمود ثابت لنبينا صلى الله عليه وسلم[٢] ،وهو مما خص به نبينا دون سائر الأنبياء .

ثم قال تعالى ـ يمتن على نبيه صلى الله عليه وسلم (ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك) وهو القرآن بأن نمحوه من الصدور والمصاحف (ثم لا تجد لك به علينا وكيلا إلا) لكن أبقيناه (رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيراً) بإنزال القرآن وحفظه من التبديل وإعطائك المقام المحمود وغير ذلك مما خصك به . ثم أمره أن يتحدى بالقرآن الإنس والجن ، وهذا مما يدل على قدر نبينا صلى الله عليه وسلم ، حيث كانت معجزته تتحدى الثقلين ، لأنه رسول إليهم ، بخلاف سائر الأنبياء عليهم السلام ، فإن معجزاتهم لا تتجاوز حدود قومهم . ثم قال تعالى (وقرآنا) عظيماً[٣] (فرقناه) أنزلناه مفرقاً فى عدة سنين (لتقرأه على الناس على مكث) على مهل وتأن (ونزلناه تنزيلا) آية بعد آية ، حسب المقتضيات والأسباب . (قل) لكفار مكة (آمنوا به) بالقرآن (أو لا تؤمنوا) به . وهذا الأمر للتهديد (إن الذين أوتوا العلم من قبله) وهم مؤمنوا أهل الكتاب (إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا) بنزوله وبعث النبى صلى الله عليه وسلم (لمفعولا ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم) القرآن (خشوعا) وفى هذا تسلية له صلى الله عليه وسلم ، وتسجيل لبعثته

---

(١) كان التهجد فرضاً عليه صلى الله عليه وسلم ، ثم نسخ ، وبقى مطلوبا منه على سبيل الندب .

(٢) ونطقت به الأحاديث فى الصحيحين وغيرهما ، وهى كثيرة مستفيضة .

(٣) هذا الوصف مأخوذ من تنكير (قرآنا) لأن التنكير يدل على التعظيم والتفخيم .

ونزول كتابه فى الكتب السابقة ، وهو يؤكد ما قررناه فى قوله تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة) الآية .

(تنبيه) عبارة (الذين أوتوا العلم) حيثما أطلقت فى القرآن ، دلت على المدح . وكذلك عبارة (الذين آتيناهم الكتاب) بخلاف (الذين أوتوا الكتاب) فإنها تأتى للذم غالباً ، وقد تأتى لمجرد التعريف ، نحو (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) أما عبارة (أهل الكتاب) فيأتى للمدح تارة وللذم أخرى .

١٤ — سورة الكهف

قال تعالى (الحمد لله الذى أنزل على عبده) محمد صلى الله عليه وسلم (الكتاب ولم يجعل له) اللام بمعنى فى ، أى لم يجعل فيه (عوجاً) أى اختلافاً . لقوله فى الآية الأخرى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً) وفى الحمد على إنزال القرآن ، دليل على أنه نعمة عظيمة ، ودليل على أنه أعلى الكتب السماوية وأجلها . وفى هذا تنويه بقدر نبينا كما لا يخفى .

١٥ — سورة مريم

فى هذه السورة آية تدل على عظم قدر نبينا صلى الله عليه وسلم[1] ، وهى قوله تعالى (وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً) فإن هذه الآية أنزلها الله تعالى . يحكى اعتذار جبريل عليه السلام ، للنبى صلى الله عليه وسلم ، حين قال له ـ معاتبا ـ (ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا) حسبما جاء فى البخارى عن ابن عباس . وفى هذا بيان عظم قدر نبينا صلى الله عليه وسلم من وجوه :

---

(١) تقدم الكلام على قوله تعالى (ذكر رحمة ربك عبده زكريا) فى سورة النساء ، وحاصله : أن الحق سبحانه أضاف اسمه إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وأضاف زكريا إليه ، ليعلم العباد فرق ما بين المنزلتين ، وتفاوت ما بين الرتبتين .

١ ـ عتابه لجبريل ٢ ـ اعتذار جبريل له ٣ ـ تسجيل الله كذلك فى كتابه . ولم يصل رسول غيره إلى هذه الرتبة السامية .

قوله تعالى (فوربك لنحشرنهم) قال الزمخشرى : فى إقسام الله تعالى باسمه تقدست أسماؤه ، مضافاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تفخيم لشأن رسول الله ورفع منه .

١٩ ـ سورة طه

قوله تعالى ، يخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم ، (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) لتتعب بما فعلت بعد نزوله ، من طول قيامك به فى صلاة الليل ، بل خفف عن نفسك . ولهذا كان عليه الصلاة والسلام ينام بعض الليل ، ويقوم بعضه .

وقيل : معنى لتشقى ، لتتعب بتأسفك على كفر من كفر ، فأرح نفسك من هذا التعب ، وإنما عليك البلاغ . فالآية على هذين الاحتمالين تفيد أمره عليه الصلاة والسلام بالتخفيف عن نفسه ، ولم يطلب الله من نبى قبله ، أن يخفف عن نفسه . وقيل : إن الكفار لما رأوا كثرة عبادته صلى الله عليه وسلم ، وكثرة تلاوته القرآن . قالوا له : إنك لتشقى بترك ديننا ، وإن القرآن نزل عليك لتشقى به . فرد الله ما قالوا . وهذا أيضاً يدل على عناية الله بنبيه عليه الصلاة والسلام ،

كان النبى صلى الله عليه وسلم ، حين ينزل عليه القرآن ، يتعجل قراءته قبل انتهاء وحيه ، فأنزل الله تعالى يأمره بالانتظار (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدنى علما[1]) بالقرآن . وبمنزلته تعالى ، وبالضرورة دعا وأجيب . فهو أعلم الناس بالله وبكتابه وفى الصحيحين حديث (أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية) وقال تعالى يخاطب نبيه ـ (وسبح) صل متلبساً (بحمد ربك) إذ الصلاة مشتملة على

---

(١) تفيد هذه الآية أمر الله تعالى نبيه باستزادة العلم منه مباشرة ، بخلاف موسى عليه السلام فإن الله تعالى أحاله على الخضر ، فذهب يطلبه فى جنبات الأرض ، حتى إذا وجـــده ، قال له (هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً) ؟ فانظر فرق ما بين المقامين !

التسبيح والتحميد (قبل طلوع الشمس) صلاة الصبح (وقبل غروبها) صلاة العصر (ومن آناء الليل) ساعاته (فسبح) صل المغرب والعشاء (و) صل الظهر (أطراف النهار) عند زوال الشمس ، لأنه طرف النصف الأول ، وطرف النصف الثانى، والمراد بالجمع ما فوق الواحد (لعلك ترضى) بما تعطى من الهبات والعطايا . قال الصاوى : انظر إلى هذا الخطاب اللطيف المشعر بأنه صلى الله عليه وسلم حبيب رب العالمين ، وأفضل الخلق أجمعين . حيث قال له ربه (لعلك ترضى) ولم يقل : لعلى أرضى عليك . ونحو ذلك .

ومن هنا قوله عليه الصلاة والسلام (وجعلت قرة عينى فى الصلاة) وقول السيدة عائشة رضى الله عنها : ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك . فصلاته صلى الله عليه وسلم مأمور بها ليرضى هو ، لا ليكفر الله عنه سيئاته ، ولا ليرضى عليه . وحينئذ فلا كلفة عليه فيها ، لأن فيها شهوده لربه الذى هو قرة عينه[1] .

١٧ — سورة الأنبياء

قال تعالى (وقالوا) أى فرق من العرب ، وهم خزاعة وهذيل وجهينة وبنو سلمة (اتخذ الله ولدا) من الملائكة ، فكانوا يعتقدون أنهم بنات الله تعالى (سبحانه) تنزيها له عن ذلك (بل) هم (عباد مكرمون) عنده ، والعبودية تنافى البنوة ، ولا تجتمع

---

(١) قوله تعالى (وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى) قال الزمخشرى : اقترحوا على عادتهم فى التعنت ، آية على النبوة ، فقيل لهم : أو لم تأتكم آية هى أم الآيات ؟ وأعظمها فى باب الإعجاز ؟ يعنى القرآن ، من قبل أن القرآن برهان ما فى سائر الكتب المنزلة ، ودليل صحته . لأنه معجزة وتلك ليست بمعجزات . فهى مفتقرة إلى شهادته على صحة ما فيها ، افتقار المحتج عليه إلى شهادة الحجة اهـ . ففى الآية — كما قال البيضاوى — إشعار بأن القرآن كما يدل على نبوته ، برهان لما تقدمه من الكتب . من حيث إنه معجز، وتلك ليست كذلك . بل هى مفتقرة إلى ما يشهد على صحتها ، وهذا مما خص به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث كانت معجزته دليلا على صحة ما فى كتب الأنبياء قبله .

منها . ولهذا لو وجد رجل ابنه رقيقا ، واشتراه . عتق عليه بمجرد الشراء (لا يسبقونه بالقول) لا يأتون بقولهم إلا بعد قوله (وهم بأمره يعملون) لا يخالفون أمره . ولو كانوا أولاداً له تعالى ، لأمكن أن يسبقوه بالقول، وأن يخالفوا أمره ، إدلالا لا ببنوتهم حسب المعتاد من إدلال الولد على والده (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) ما هم عاملون وما عملوه (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) من المؤمنين ، فلا يشفعون إلا لمن علموا أن الله يقبل شفاعتهم فيه (وهم من خشيته مشفقون) وجلون (ومن يقل منهم) من الملائكة (إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك) كما نجزي القائل (نجزي الظالمين) المشركين . في هذه الآية إنذار إلى الملائكة ، وفي الآية الأخرى (وأوحي إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) فيؤخذ منهما أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل إلى الملائكة . ذكر هذا الاستنباط ، الحافظ السيوطي في (الأرائك في إرسال النبي إلى الملائك) وهو استنباط وجيه . يؤيده ما تقدم من قتال الملائكة معه في غزوة بدر ، وما سبق في سورة الإسراء من تعبدهم بحضور الصلاة معنا ، وما ثبت في الصحيح أنهم يحضرون خطبة الجمعة . ويحضرون معنا صلاة الجماعة ، وأن الإمام إذا قال (ولا الضالين) قالوا : آمين . فمن وافق تأمينه تأمينهم ، غفر له . وصح[1] أن جبريل سأل النبي صلى الله عليه وسلم : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال (خيارنا أو من خيارنا) قال : (قال جبريل عليه السلام : كذلك أهل بدر فينا) إلى غير ذلك مما يدل على أنهم متعبدون بما يناسبهم من شريعتنا ، وهذا من خصائص نبينا صلى الله عليه وسلم[2] .

---

(١) في صحيح البخاري عن رفاعة بن رافع الزرقي رضي الله عنه قال : جاء جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال (من أفضل المسلمين) أو كلمة نحوها ، قال وكذلك من شهد بدراً من الملائكة . ففيهم من حضر بدراً وأحداً والخندق كما أن الصحابة كذلك .

(٢) وحكى الرازي الإجماع على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرسل إلى الملائكة . وفي هذا الإجماع نظر ، فلم يحكه أحد قبله من ناقلي الإجماعات ، كابن المنذر وابن عبد البر وابن حزم ، ولعله حكاه بناء على ما قام بذهن كثير من العلماء : إن الملائكة معصومون . وأنهم مفطورون

وقال سبحانه (ولقد كتبنا فى الزبور) الكتاب ، وهو يعم الكتب كلها يعنى المنزلة (من بعد الذكر) وهو اللوح المحفوظ . والمعنى : أن الله يقسم باسمه الأقدس على أنه كتب فى اللوح المحفوظ والكتب التى أنزلها (أن الأرض) أى أرض الجنة (يرثها عبادى الصالحون) من المؤمنين . قال تعالى فى أهل الجنة (وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء . . تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا . ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون[1]) ومن بدع التفاسير أن بعض مؤيدى الاستعمار من المعاصرين، حمل الأرض على الدنيا . وفسر الآية على معنى : أن الأرض أى الدنيا يرثها العباد الصالحون لعمارتها ، وهم المستعمرون وهذا إلحاد فى القرآن ، وكذب على الله ، وخروج على دينه ؟ وإبطال لفريضة الجهاد ، ونحن نبرأ إلى الله من هذا التفسير ، ومن صاحبه (إن فى هذا) القرآن (لبلاغاً) كفاية فى وراثة أرض الجنة (لقوم عابدين) عاملين به (وما أرسلناك إلا رحمة) أى للرحمة ، أو الإحال كونك رحمة (للعالمين) الملائكة والإنس والجن . أما الملائكة فإن

على التسبيح والتحميد ، فلا يتوجه عليهم تكليف ، وهذا خطأ بل يتوجه عليهم التكلف . لقوله تعالى فى شأنهم (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون) ولما ذكرناه فى الأصل، ولأنهم متعبدون بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، وبعبادات كثيرة يطول تتبعها ، وممن قال بإرسال نبيه إليهم : التقى السبكى ، والبارزى ، والسيوطى . وبعض متأخرى الأشعرية أراد أن يتوسط بين هذين القولين ، فقال : أنه صلى الله عليه وسلم مرسل إليهم إرسال تشريف ، لا تكليف ، وهذا لا معنى له ، ولا طائل تحته .

(١) تقدم فى سورة الإسراء تفسير الزمخشرى لهذه الآية بأن المراد بها محمد وأمته ، والمعنى: أن الله يورث المسلمين أرض الكفار بعد هزيمتهم ، فقد فتح عليهم بلاد الشام وفارس والهند والعراق ومصر وسائر بلاد شمال إفريقيا وغير ذلك من البلاد والأصقاع .

والدليل على هذا قوله تعالى (أو لم يروا أنا نأتى الأرض) أرض الكفر (ننقصها من أطرافها) بما نفتح على المسلمين من بلادهم ، فتنقص دار الحرب ، ونزيد فى دار الإسلام ، وذلك من آيات النصرة والغلبة ، وقد يسر الله للمسلمين الأولين من فتوح البلدان ، ودخولها تحت لواء الإسلام ؟ ماعد معجزة فى تاريخ البشر منذ أوجده الله على ظهر الكرة الأرضية .

الله مدحوم فى كتابه الذى جعل معجزته . وأما الثقلان فإن المؤمنين منهم سعدوا باتباعه ، وفازوا بالنعيم الدائم يوم القيامة . والكفار منهم رفع عنهم الخسف والمسخ والقذف وأنواع العذاب التى عذب بها من قبلهم . هذا إلى يسر دينه ، وسماحة تعاليمه ، وكرم معاملته ، وسعة عفوه . ولم يكن هذا لنبى ولا رسول سواه .

١٨ — سورة الحج

قال الله تعالى يخاطب هذه الأمة (هو اجتباكم) اختاركم لدينه ، وجعلكم أمة وسطاً كما سبق (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) ضيق ، بل جعله سهلا سمحاً ، كما قال عليه الصلاة والسلام (بعثت بالحنيفية السمحة) (ملة أبيكم إبراهيم) عليه السلام ، وملة منصوب بنزع الخافض ، أى كملة إبراهيم . والمراد تشبيه ديننا بدين إبراهيم فى التوحيد والسهولة (هو) أى الله (سماكم المسلمين من قبل) أى من قبل هذا الكتاب فى الكتب القديمة (وفى هذا) القرآن ، حيث قال (ورضيت لكم الإسلام ديناً) (ليكون الرسول شهيداً عليكم) يوم القيامة أنه بلغكم (وتكونوا شهداء على الناس) أن رسلهم بلغوهم . وفى هذه الآية من فضائله عليه الصلاة والسلام : سهولة دينه ، واختيار أمته على سائر الأمم ، وشهادتها للرسل يوم القيامة أنهم بلغوا قومهم ، وشهادته عليها بأنه بلغها ، وهو عليه الصلاة والسلام لا يحتاج إلى من يشهد له .

١٩ — سورة المؤمنون

قال سبحانه (أفلم يدبروا القول) أفلم يدبر كفار قريش القرآن الدال على صدق النبى صلى الله عليه وسلم ؟ (أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين . أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون . أم يقولون به جنة) الاستفهام للتقرير بالحق الذى هو صدق النبى صلى الله عليه وسلم ، ومجىء الرسل للأمم الماضية المعبر عنهم بآبائهم الأولين ، ومعرفة رسولهم بالصدق والأمانة ، وأنه مبرأ من الجنون . ومعنى الاستفهام التقريرى : أقروا بالحق المذكور ولا تنكروه . وفى الآية دفاع الله عن نبيه بهذا الأسلوب الذى يدل على أنهم فى إنكارهم على النبى ، وتكذيبهم له ، يخالفون ما يعلمون عنه من الصدق والأمانة

ورجحان العقل . ولهذا أضافه إليهم ، للدلالة على أنهم عرفوه وعاشروه . فكيف ينكرونه بعد ذلك ؟ ! ! (بل) للانتقال من الاستفهام التقريرى ، إلى الرد الصريح . (جاءهم بالحق) القرآن (وأكثرهم للحق كارهون) ولهذا كرهوا الآتى به سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم .

٢٠ ـ سورة النور

خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى غزوة بنى المصطلق ، وأخذ معه عائشة رضى الله عنها تحمل فى هودج يسترها ، وذلك بعد فرض الحجاب ، وفى رجوعهم من الغزو ، تأخرت لقضاء حاجتها ، والبحث عن عقد وقع منها . وسار الجيش ، وحملوا هودجها يحسبونها فيه ، وهى خارجه . ووجدت عقدها ، ورجعت إلى هودجها فلم تجده ، ونامت فى ذلك المكان ، وهى تؤمل أن يفتقدوها ، فيرجعوا إليها . فجاء صفوان بن المعطل رضى الله عنه ـ وكان يتأخر بعد الجيش ، يتفقد ما يسقط منهم ، ليحمله إليهم ـ فوجدها نائمة ، وكان يعرفها لأنه رآها قبل الحجاب ، فاسترجع حتى استيقظت ، فأناخ الناقة ، وأدار ظهره حتى ركبت ، ولحقا بالجيش . فاتهمها عبد الله بن أبى بن سلول رأس النفاق وتناقل كلامه بعض الصحابة ، غفلة منهم عن خبيئة نفسه . واهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه التهمة ، لأنها تمس زوجه . فأنزل الله فى براءتها بضع عشرة آية ، افتتحها بقوله تعالى (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) واختتمها بقوله سبحانه (أولئك مبرؤون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم) وفى هذه الحادثة دلالة على شدة عناية الله بنبيه ، من وجوه .

(الأول) أن الله برأ زوجه بقرآن يتلى ، ولم يكتف بأن يبرئها برؤيا منامية ، وإن كانت رؤيا الأنبياء وحياً يثبت به الشرع .

(الثانى) أنه سمى قذفها إفكا ، والإفك أقبح الكذب .

(الثالث) أنه تعالى توعد البادىء به ـ وهو عبد الله بن أبى بن سلول ـ بعذاب عظيم ، وأوقع على الخائضين فيه إثم خوضهم وترويجهم له .

(الرابع) أنه تعالى وبخ الخائضين فيه ، وزجرهم بعدة زواجر وموبخات ، وهى قوله سبحانه (لولا إذ سمعتموه . . لولا جاؤا عليه بأربعة شهداء . . ولولا فضل الله عليكم ورحمته . . . إذ تلقونه بألسنتكم . . ولولا إذ سمعتموه . . يعظكم الله أن تعودوا لمثله . . إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة ، . ولولا فضل الله عليكم . . يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ـ إلى ـ والله سميع عليم) .

(الخامس) أخبر عن الخائضين فيه أنهم كاذبون عنده تعالى (فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) وهذا يفيد القطع بكذبهم هنا . بخلاف قذف أى محصنة مسلمة ، فإن القاذف لها ـ إذا لم يأت بالشهداء ـ يكون كاذباً بحسب الظاهر ، ولا يقطع بكذبه ، لجواز أن يكون صادقا ولم يستطع إحضار الشهود .

(السادس) أنه تعالى أوجب اللعنة والعذاب على قاذف إحدى أمهات المؤمنين ، حيث قال سبحانه (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات) هن أمهات المؤمنين (لعنوا فى الدنيا والآخرة ـ إلى ـ ويعلمون أن الله هو الحق المبين) .

(السابع) نقل القرطبي عن بعض أهل التحقيق ، قال : لما رمى يوسف عليه السلام بالفاحشة برأه الله على لسان صبى فى المهد ، ولما رميت مريم بالفحشاء ، برأها الله على لسان ولدها عيسى عليهما السلام ، ولما رميت عائشة بالفحشاء ، برأها الله بالقول . فما رضى لها براءة صبى ولا نبى ، حتى برأها الله بكلامه من القذف والبهتان . قلت : لما كانت عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، برأها الله بهذه الطريقة ، إظهاراً لشدة عنايته بنبيه . فالموازنة المذكورة ، هى فى الحقيقة موازنة بين يوسف وعيسى ، وبين نبينا عليهم الصلاة والسلام ، وفضل نبينا عليهما ظاهر .

وقال الزمخشرى فى الكشاف : ولو فليت القرآن كله ، وفتشت عما أوعد به العصاة لم تر الله تعالى غلظ فى شىء تغليظه فى إفك عائشة رضوان الله عليها ، ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد، والعتاب البليغ ، والزجر العنيف. واستعظام ما ركب من ذلك ، واستفظاع ما أقدم عليه ، ما أنزل فيه على طرق مختلفة ، وأساليب مفتنة ، كل واحد منها كاف فى بابه . إلى أن قال : ولقد برأ الله تعالى أربعة بأربعة .

برأ يوسف بلسان الشاهد، وشهد شاهد من أهلها، وبرأ موسى من قول اليهود فيه بالحجر الذى ذهب بثوبه[1]. وبرأ مريم بإنطاق ولدها حين نادى من حجرها: إنى عبد الله، وبرأ عائشة بهذه الآيات العظام فى كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر، مثل هذه التبرئة، بهذه المبالغات. فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك، وما ذاك إلا لإظهار علو منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتنبيه على إنافة محل سيد ولد آدم، وخيرة الأولين والآخرين، وحجة الله على العالمين، ومن أراد أن يتحقق عظمة شأنه صلى الله عليه وسلم، وتقدم قدمه، وإحرازه لقصب السبق دون كل سابق، فليتلق ذلك من آيات الإفك، وليتأمل كيف غضب الله له فى حرمته؟! وكيف بالغ فى نفى التهمة عن حجابه؟!. اهـ.

(تنبيه) اتخذ المستشرقون والمبشرون من حادثة الإفك، مغمزاً يعيبون به النبى صلى الله عليه وسلم، عن طريق اتهام زوجه، وثلم عرضها. وهم فى هذا مغرضون حاقدون. وقد أجاد الرد عليهم الأستاذ العقاد، فى كتابه (الصديقة بنت الصديق) فليراجع. ومما قرأته فى بعض الكتب القديمة. أن أحد كبار القسيسين، ناظر بعض كبار علمـــاء المسلمين فى مسائل دينية، وتدرج الكلام إلى حديث الإفك، فاتخذه القسيس تكأة للطعن فى النبى صلى الله عليه وسلم. فقال له ذلك العالم ـ وأظنه الباقلانى ـ على فرض صحة التهمة، فعائشة زوجة، يمكن التخلص منها بالطلاق. ولكن ما قولك فيمن أتت قومها تحمل طفلها بين يديها؟!!! فانقطع القسيس ولم يحر جواباً.

---

(١) كان اليهود يغتسلون عراة. وكان موسى عليه السلام حيياً ستيراً، إذا أراد الاغتسال، انفرد فى مكان بعيد عنهم، حتى لا يروا عورته، فقالوا: لا ينفرد عنا إلا لأنه آدر — أى خصيتاه منتفختان، أو إحداهما — وأراد الله أن يبرئه من هذا العيب الذى ألصقوه به، فذهب يغتسل مرة منفرداً على عادته، ونزع ثيابه ووضعها على حجر، ونزل إلى الماء يستحم. فلما اغتسل، وأراد أن يلبس ثوبه، جرى الحجر، وجرى موسى عاريا خلفه يناديه: ثوبى حجر، ثوبى ياحجر، حتى مر على جماعة من بنى إسرائيل، فرأوه عارياً ليس به داء، وعلموا أنهم اتهموه كذبا، فوقف الحجر وأخذ ثوبه، وضربه بعصاه حتى أثر فيه ندبا من ضربه. كذا ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم.

وقال تعالى - فى المنافقين الذين ينفرون من التحاكم إلى النبى صلى الله عليه وسلم - (ويقولون) أى المنافقون (آمنا بالله وبالرسول وأطعنا) هما فيما حكما به (ثم يتولى) يعرض (فريق منهم من بعد ذلك) عن حكم الرسول (وما أولئك) المعـــرضون (بالمؤمنين) حقيقة ، إذ لو كان إيمانهم حقيقياً ، ما أعرضوا عن حكمه (وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون) عن المجىء إليه إن كان عليهم الحق (وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين) طائعين (أفى قلوبهم مرض) كفر (أم ارتابوا) فى نبوته (أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله) فى الحكم . وبالضرورة لا محل لخوفهم ، لاستحالة الجور فى حق الله ورسوله (بل أولئك هم الظالمون) بالإعراض عن الحكم . وفى الآية دليل على أنه عليه الصلاة والسلام لا يخطىء فى الحكم . لأن الله تعالى جعل حكم نبيه حكمه ، والخطأ فى حقه تعالى محال. فما زعمه بعض مبتدعة هذا العصر من نسبة الخطأ إليه عليه الصلاة والسلام ، فى بعض أحكامه ، ضلال مبنى على جهل . وزاد بعضهم جهلا وضلالة ، فجوز مخالفة بعض قضاياه صلى الله عليه وسلم ، إذا اقتضت المصلحة ذلك . ولا أدرى كيف خفيت عليه هذه الآية ؟ وآية سورة النساء ؟ ! وأى مصلحة تقتضى مخالفة حكمه ؟ والقرآن ينفى الإيمان عمن لم يسلم له تسليما ؟ ! (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم) أفرد الضمير لإفادة أن حكم الله ورسوله واحد (أن يقولوا سمعنا وأطعنا) لا أن يردوه لمصلحة أو غيرها (وأولئك هم المفلحون) الفائزون . ثم حض الله على طاعته وطاعة رسوله وأمر بها وأخبر أن الهداية فى طاعة رسوله . وهذا يؤكد ما قدمناه أن الله يقرن ذكر رسوله بذكره ، تشريفاً له وتكريماً . وأنه تعالى يتولى توجيه الأمر بطاعته ، كما تولى الدفاع عنه .

أمر النبى صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق ، استعداداً لمقابلة المشركين الذين عزموا على غزوه بالمدينة . فكان المنافقون يتباطئون فى العمل . وإذا وجدوا فرصة انصرفوا لبيوتهم من غير استئذان ، بخلاف الصحابة الذين كانوا يعملون مجتهدين ، ولا ينصرف أحدهم إلا لعذر ، بعد استئذان ، ويعود عند انتهائه . فأنزل الله يمدحهم ، ويذم المنافقين (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه) مع الرسول (على

أمر جامع) كحفر الخندق أو خطبة الجمعة (لم يذهبوا) لعذر طرأ لهم (حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك) فى الانصراف للعذر (أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) فى هذا غاية المدح للصحابة ، ونهاية الذم للمنافقين . فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم) فوض إليه الأمر . وهذا دليل مسألة التفويض المذكورة فى مبحث الاجتهاد من علم الأصول . (واستغفر لهم الله) ليعوضهم استغفارك مافاتهم من شرف مجالستك (إن الله غفور رحيم) .

وقال الزمخشرى فى تفسير هذه الآية : أراد عز وجل أن يريهم عظم الجناية فى ذهاب الذاهب عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير إذنه (وإذا كانوا معه على أمر جامع) فجعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ثالث الإيمان بالله والإيمان برسوله ، وجعلهما كالتسبيب له ، والبساط لذكره . وذلك مع تصدير الجملة بإنما وإيقاع المؤمنين مبتدأ مخبراً عنه بموصول أحاطت صلته بذكر الإيمانين ، ثم عقبه بما يزيده توكيداً وتشديداً حيث أعاده على أسلوب آخر ، وهو قوله (إن الذين يستأذنوك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) وضمنه شيئاً آخر . وهو أنه جعل الاستئذان كالمصداق لصحة الإيمانين وعرض بحال المنافقين وتسللهم لواذاً . ومعنى قوله (حتى يستأذنوه) لم يذهبوا حتى يستأذنوه ويأذن لهم ، ألا تراه كيف علق الأمر بعد وجود استئذانهم ، بمشيئته وإذنه لمن استصوب أن يأذن له .

كان بعض المسلمين ينادى النبى صلى الله عليه وسلم باسمه المجرد ، أو كنيته : يا محمد أو يا أبا القاسم . فنهاهم الله عن ذلك بقوله تعالوا (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) كما يقول بعضكم لبعض : يا فلان ، ولكن قولوا : يا رسول الله ، يا نبى الله ، ونحوهما من الألفاظ المشعرة بالتعظيم ، ومنها : لفظ سيدى كما كان يناديه بعض أجلاء الصحابة ، حسبما ثبت فى سنن أبى داود ، وصححه الحاكم . فالوهابية الذين يتشبثون بذكره باسمه المجرد ، خالفوا القرآن الكريم ، وجانبوا الذوق السليم ، وأبانوا عن قلة أدب فى حق الرسول العظيم ، الذى خصه الله بهذه الخصوصية ، دون سائر الأنبياء الذين حكى الله عنهم ، دعاء قومهم لهم بأسمائهم المجرد نحو (وإذ قلتم يا موسى لن

نصبر على طعام واحد . . إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم) وقالت بلقيس (رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) ثم عاد الكلام إلى ذم المنافقين (قد) للتحقيق (يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً) يخرجون مستترين أثناء خطبة الجمعة (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) أى الرسول (أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) يؤخذ منه أن الآمر للوجوب ، وعلى أن أمر الرسول واجب الاتباع .

وقال الزمخشرى : إذا احتاج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اجتماعكم عنده لأمر فدعاكم ، فلا تفرقوا عنه إلا بإذنه ، ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً ، ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعى . أو لا تجعلوا تسميته ونداءه بينكم كما يسمى بعضكم بعضاً ويناديه باسمه الذى سماه به أبواه ، ولا تقولوا يا محمد ، ولكن قولوا يا نبى الله ، ويا رسول الله ، مع التوقير والتعظيم والصوت المخفوض والتواضع . قلت : الآية تشمل المعنيين جميعاً ، لأن الفعل واقع فى سياق النهى ، فيعم .

٢١ ـ سورة الفرقان

قوله تعالى (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) يفيد أن النبى صلى الله عليه وسلم مرسل إلى الإنس والجن والملائكة . لأن لفظ العالمين يشملهم ، ولأنه سبق فى سورة الأنبياء توجيه الإنذار لهم . ومن حمل من المفسرين لفظ العالمين على الثقلين ، محتجاً بأن الملائكة معصومون ، فقدوهم . لأن العصمة لا تنافى التكليف ، ولا تمنع توجيه الإنذار بصيغة الشرط ، كما تقدم فى سورة الأنبياء . وكما فى قوله تعالى (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) مع أن الأنبياء معصومون أيضاً . والحكمة فى ذلك : تعبدهم بما يزيد فى درجات قربهم ، والتنبيه على أنهم ـ مع عصمتهم وعلو رتبتهم ـ لو فرض وقوع مخالفة منهم ، عذبوا . فكيف بمن هو دونهم ؟

قوله تعالى (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون) الآيات . تتضمن تهما وشبهاً ، مع جواب الله عنها بما يبين بطلانها .

قوله تعالى (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) يؤيد ما بيناه فى سورة البقرة أن الله تعالى تولى الدفاع عن نبيه فيما وجه إليه الكفار من تهم وشبه . قال العلامة الصاوى : معنى الآية : كلما أوردوا شبهة أو أتوا بسؤال عجيب ، أجبنا عنه بجواب حسن يرده ويدفعه من غير كلفة عليك فيه . فلو نزل القرآن جملة واحدة ، لكان النبي هو الذى يبحث فى القرآن عن رد تلك الشبهة ، كالعالم الذى يبحث فى الكتب عن جواب المسائل التى يسئل عنها . فيكون الأمر موكولا له ، فتكون الكلفة عليه . وما كان موكولا إلى الله تعالى ، كان أتم مما هو موكول إلى العبد ، وفيه قمع للمعاندين .

قوله تعالى (ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيراً) يفيد أن الله لو أرار أن يبعث رسولا فى كل قرية ، لفعل . وتكون رسالة نبينا حينئذ خاصة بقومه ، كالأنبياء السابقين . ولكن جعل نبيه رسولا إلى العالم كله ، ليعظم أجره ، ويعلى ذكره ، ويرتفع قدره .

قال الزمخشرى (ولو شئنا) لخففنا عنك أعباء نذارة جميع القرى و (لبعثنا فى كل قرية) نبياً ينذرها . وإنما قصرنا الأمر عليك ، وعظمناك به ، وأجللناك وفضلناك على سائر الرسل . فقابل ذلك بالتشدد والتصبر اهـ .

٢٢ ـ سورة الشعراء

قوله تعالى (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) خرج مخرج الإشفاق عليه صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : أشفق على نفسك ، ولا تقتلها غما لأجل أن لم يؤمنوا .

وقوله تعالى (إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لهاخاضعين) خرج مخرج التسلية له صلى الله عليه وسلم عن عدم إيمانهم ، وهذه عناية لم ينلها نبى قبله .

قوله تعالى (وإنه لتنزيل رب العالمين) الآيات . مدح للقرآن ومنزله والمنزل عليه . وبيان أن علماء بنى إسرائيل يعلمون أنه حق ، ويشهدون بذلك .

وقوله تعالى (وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغى لهم وما يستطيعون ـ إلى ـ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفاك أثيم) الآية . رد لقول المشركين على سنة الله فى رد ما يورد على نبيه ، عناية خاصة به ، لم ينلها رسول قبله .

٢٣ – سورة النمل

قوله تعالى (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) رد لقول المشركين فيه وفى القرآن ، ولذا ورد مؤكداً بإن واللام . وهو مع هذا تمهيد لما سيتلى عليه من قصص الأنبياء عليهم السلام .

قوله تعالى (ولا تحزن عليهم ولا تكن فى ضيق مما يمكرون) تسلية له صلى الله عليه وسلم عن مكر الكفار به ، لأن الله تعالى تكفل بنصره عليهم .

٢٤ – سورة القصص

قوله تعالى (وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر) الآيات . نوع من دفاع الله عن نبيه ، بإقامة الحجة على مكذبيه صلى الله عليه وسلم .

لما خرج النبى صلى الله عليه وسلم مهاجراً إلى المدينة ، ووصل إلى الجحفة ، وعرف طريق مكة – لأنه كان يسير على غير الطريق المعتاد – اشتاق إلى بلده . فأنزل الله تعالى عليه . يعده بالعودة إلى بلده (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) وهذا من دلائل عناية الله بنبيه[1] .

---

(١) قال الزمخشرى فى تفسير هذه الآية : (إن الذى فرض عليك القرآن) أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه . يعنى أن الذى حملك صعوبة هذا التكليف ، لمثيبك عليها ثواباً لا يحيط به وصف . و (لرادك) بعد الموت (إلى معاد) أى معاد ، إلى معاد ليس لغيرك من البشر ، — قلت يعنى المقام المحمود — وتنكير المعاد كذلك ، وقيل : المراد به مكة ، ووجهه : أن يراد رده ، إليها يوم الفتح ، ووجه تنكيره : أنها كانت فى ذلك اليـــوم معاداً له شأن ، ومرجعاً له اعتداد ، لغلبة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها ، وقهره لها : ولظهور عز الإسلام وأهله ، وذل الشرك وحزبه . والسورة مكية ، فكأن الله وعده وهو بمكة فى أذى وغلبة من أهلها : أنه يهاجر به منها ، ويعيده إليها ظاهراً ظافراً ، وقيل : نزلت عليه حين بلغ الجحفة فى مهاجره وقد اشتاق إلى مولده ومولد آبائه ، وحرم إبراهيم . فنزل جبريل ، فقال له : أتشتاق إلى مكة ؟ قال (نعم) فأوما إبراهيم إليه .

١٥ – سورة العنكبوت

قوله تعالى (وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون) الآيات . إقامه للحجة على اليهود الذين أنكروا نبوته صلى الله عليه وسلم ، وهو دفاع أيضاً .

٢٦ – سورة الأحزاب

قوله تعالى (يا أيها النبي اتق الله) نداء له بوصف النبوة ، وقد نبهنا على ذلك فى سورة المائدة ، ونقلنا كلام الزمخشرى على هذه الآية .

قوله تعالى (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) يفيد وجوب تقديم النبي صلى الله عليه وسلم وإيثاره ، فيجب على المؤمن تقديم نفس النبي على نفسه ، ويؤثر طاعته على حظ نفسه . قال حسان :

فإن أبي ووالده وعرضى لعرض محمد منكم وقاء

وقال الزمخشرى : (النبي أولى بالمؤمنين) فى كل شىء من أمور الدين والدنيا (من أنفسهم) ولهذا أطلق ولم يقيد . فيجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم ، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها ، وحقه آثر لديهم من حقوقها ، وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها ، وأن يبذلوها دونه ، ويجعلوها فداءه إذا أعضل خطب ، ودفاعه إذا لقحت حرب ، وأن لا يتبعوا ما تدعوهم إليه نفوسهم ، ولا ما تصرفهم عنه . ويتبعوا كل مادعاهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصرفهم عنه ، لأن كل ما دعا إليه فهو إرشاد لهم إلى نيل النجاة والظفر بسعادة الدارين ، وما صرفهم عنه فأخذ بحجزهم لئلا يتهافتوا فيما يرمى بهم إلى الشقاوة وعذاب النار اهـ .

قوله تعالى (وأزواجه أمهاتهم) يفيد أن أزواجه الطاهرات ، أمهات المؤمنين فى وجوب تعظيمهن واحترامهن ، وحرمة نكاحهن ، كما يأتى التصريح به بعد .

قوله تعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى

وعيسى ابن مريم) قال الزمخشرى : فإن قلت : لم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على نوح فمن بعده ؟ قلت : هـــذا العطف لبيان فضيلة الأنبياء الذين هم مشاهيرهم وذراريهم . فلما كان محمد صلى الله عليه وسلم أفضل هؤلاء المفضلين ، قدم عليهم ، لبيان أنه أفضلهم ، ولولا ذلك لقدم من قدمه زمانه . فإن قلت : فقد قدم نوح عليه السلام فى الآيه التى هى أخت هذه الآية ، وهى قوله تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك) ثمّ قدم على غيره ؟ قلت : مورد هذه الآية على طريقة خلاف طريقة تلك . وذلك أن الله تعالى إنما أوردها لوصف دين الإسلام بالأصالة والاستقامة ، فكأنه قال : شرع لكم الدين الأصيل الذى بعث عليه نوح فى العهد القديم ، وبعث عليه محمد خاتم الأنبياء فى العهد الحديث ، وبعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء والمشاهير . اهـ .

قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود) يعنى الأحزاب وهم قريش وغطفان ويهود قريظة والنضير (فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها) الريح ريح الصبا والجنود والملائكة ، وكان هذا فى غزوة الخندق ، حيث قلعت الريح خيام الكفار ، وسفت التراب فى وجوههم ، وأطفأت نيرانهم ، وكبرت الملائكة فى جوانب معسكرهم ، فقال طليحة بن خويلد الأسدى : أما محمد فقد بدأكم بالسحر ، فالنجاء النجاء ، فانهزموا من غير قتال [1] .

---

(١) قوله تعالى (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) يعنى أنه صلى الله عليه وسلم قدوة حسنة يقتدى به المؤمنون فى كل ما يصدر عنه من قول وعمل ، لأنه لا ينطق ولا يعمل عن هوى بل عن وحى ظاهر أو خفى . قال بعض الكبراء :

وخصك بالهدى فى كل أمر فلست تشاء إلا ما يشاء

ومما يقتدى به فيه ، ما كان سبب نزول الآية . وهو المواساة بنفسه ، والثبات فى مواطن القتال . وقوله (لمن كان يرجو الله) الآية بدل من لكم فهو بيان لمن ثبتت له الأسوة الحسنة : أى أن المقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم هو المتصف بخوف الله واليوم الآخر ، والذكر الكثير لله تعالى ، ويؤخذ منه أن الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم شرف لا يناله إلا علية المؤمنين وخاصتهم .

طلب أمهات المؤمنين التوسيع عليهن فى النفقة واللبس ، فأنزل الله فى ذلك (يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا) فخيرهن بين الله ورسوله ، وبين إجابة طلبهن فى متعة الحياة الدنيا ، وأخبر أن عقابهن مضاعف ، وكذلك ثوابهن[1] وأخبر أنهن لسن كأحد من النساء . ونداؤهن بيانساء النبي ، يفيد أنهن نلن هذا التكريم ، لأجله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) يفيد طهارة أهل بيت النبوة . وهم ، كما ثبت فى الصحيح - على وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام . لأن الله لما بين تكريم نسائه ، بين تكريم أولاده وعصبته ، فجمع له الفضل من جميع أطرافه ، عليه الصلاة والسلام .

خطب النبي صلى الله عليه وسلم من عبد الله بن جحش ، أخته زينب ، فوافق ، لظنه أنه خطبها لنفسه . فلما علم هو وأخته أن الخطبة لزيد ، كرها ذلك . فأنزل الله تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم[2])

---

(١) قال تعالى (ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين) مرة على طاعتها ، ومرة على خدمتها للرسول فى حياته ، وحبس نفسها عليه بعد انتقاله . وممن يؤتى أجره مرتين الكتابى إذا أسلم . لإيمانه بكتابه وبالقرآن ، قال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به مؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين) وفى الحديث الصحيح (ثلاثة كلهم لهم أجران رجل كانت له جارية فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران ورجل كان من أهل الكتاب يؤمن بنبيه فأدرك النبي صلى الله عليه وسلم فآمن به فله أجران ومملوك أدى حق الله تعالى وحق مواليه فله أجران) .

(٢) قال ابن القيم فى زاد المعاد تعليقا على هذه الآية : فقطع سبحانه التخيير بعد أمره وأمر رسوله ، فليس لمؤمن أن يختار شيئاً بعد أمره صلى الله عليه وسلم ، بل إذا أمر فأمره حتم ، وإنما الخيرة فى قول غيره إذا خفى أمره وكان ذلك الغير من أهل العلم به وبسنته ، فبهذه الشروط يكون قول غيره سائغ الاتباع . لا واجب الاتباع . فلا يجب على أحد اتباع قول أحد سواه ، بل غايته أنه يسوغ له اتباعه . ولو ترك الأخذ بقول غيره لم يكن عاصيا لله ورسوله . فأين هذا

فقال عبد الله وأخته ، رضينا بأمر الله ورسوله . أفادت هذه الآية أن أمر النبي هو أمر الله ، ولو كان خارج القرآن ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم رأى أن يزوج زينب لزيد ، وأمر أخاها بتنفيذ الزواج ، فأخبر الله تعالى أن هذا أمره ، وأتى بصيغة عامة تشمل جميع أوامره عليه الصلاة والسلام . فالآية تصفع أولئك المبتدعة الذين يقصرون طاعة النبي على ما كان في القرآن ، ومتعلقاً بالدين ! وزواج زينب بزيد لم يأمر به القرآن ، ولا علاقة له بالدين . فإن تمسكوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم في مسألة تأبير النخل (أنتم أعلم بأمور دنياكم) فلا حجة لهم فيه . لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر بترك التأبير ، وإنما قال (لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً) فأبدى رأياً مجرداً ، وليس كلامنا فيه ، إنما كلامنا فيما أفادته الآية من وجوب اتباع أمره دينيا كان أو دنيويا . مع تذييلها بقوله تعالى (ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً)[1].

كان الناس يدعون زيداً ابن محمد ، لأنه عليه الصلاة والسلام كان قد تبناه قبل النبوة . فأنزل الله في ذلك (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) في هذه الآية - إلى جانب إبطال التبني - إثبات كونه عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين ، وهي مزية فضله الله بها على جميع المرسلين . ويلاحظ هنا أن الله حين ذكره باسمه محمد ، أعقبه بوصف الرسالة ، إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يذكر اسمه إلا مقرونا بما يدل على التعظيم .

قوله تعالى (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعيا إلى الله بإذنه

ممن يجب على جميع المكلفين اتباعه ، ويحرم عليهم مخالفه ، ويجب عليهم ترك كل قول لقوله . فلا حكم لأحد معه ، ولا قول لأحد معه ، كما لا تشريع لأحد معه . وكل من سواه فإنما يجب اتباعه على قوله ، إذا أمر بما أمر به ، ونهى عما نهى عنه . فكان مبلغاً محضاً ومخبراً ، لا منشئاً ومؤسساً . فمن أنشأ أقوالا ، ولا التحاكم إليها . حتى تعرض على ما جاء به ، طابقته وشهد لها بالصحة ، قبلت حينئذ . وإن خالفته ، وجب ردها . وإن / يتبين فيها أحد الأمرين ، جعلت مرفوعة ، وكان أحسن أحوالها أن يجوز الحكم والافتاء بها وتركه ، وأما أنه يجب ويتعين ، فكلا ولما اهـ . وهو في غاية الحسن ونهاية الإجادة .

وسراجاً منيراً) يفيد تسمية النبي صلى الله عليه وسلم بأسماء تدل على علو قدره، وارتفاع منزلته ، ولم يسم بها نبي قبله ، ويلاحظ أن الله سماه سراجاً منيراً ، وسمى الشمس سراجاً وهاجا . والمنير هو الذى ينير من غير إحراق ، بخلاف الوهاج ، فإن فيه إحراقاً وتوهجا .

قوله تعالى (يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن — إلى — وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين) يفيد أن الزواج بلفظ الهبة ، ومن غير صداق . من خصوصياته عليه الصلاة والسلام ، فلا يصح الزواج بلفظ الهبة لأحد من الناس ، كائنا من كان .

قال الزمخشرى : فإن قلت : لم عدل عن الخطاب إلى الغيبة ، فى قوله تعالى (نفسها للنبي إن أراد النبي) ثم رجع إلى الخطاب ؟ قلت : للإيذان بأنه مما خص به وأوثر ، ومجيئه على لفظ النبي للدلالة على أن الاختصاص تكرمة له لأجل النبوة ، وتكريره تفخيم له . وتقرير لاستحقاقه الكرامة لنبوته . اهـ .

قوله تعالى (ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك) يفيد تخييره صلى الله عليه وسلم فى القسم بين زوجاته ، من غير وجوب عليه ، وهذا من خصوصياته أيضاً .

قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه[1] ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً) يبين عدة أشياء ، من حقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته :

أحدها : أن أناساً كانوا يدخلون بيوت النبي صلى الله عليه وسلم ، بغير دعوة منه ،

---

(١) نضجه .

وينتظرون نضج الطعام ، ليأكلوا معه ، فحرم الله عليهم الدخول إلا بدعوة منه .

ثانيها : دعا النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة إلى وليمة أولمها على بعض أزواجه . ولما تناولوا الطعام مكث بعضهم يتجاذبون أطراف الحديث . فأوجب الله عليهم الخروج عقب تناول الطعام مباشرة .

ثالثها : كان منهم من يتناول الطعام مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وبعض أزواجه . ففرض الله الحجاب على أمهات المؤمنين ، صيانة لجناب نبيه الكريم ، عليه الصلاة والسلام .

رابعها : قال بعض كبار الصحابة : لئن مات النبي صلى الله عليه وسلم ، لأتزوجن عائشة . فحرم الله تعالى نكاح أزواجه من بعده . قال الزمخشري : وسمى نكاحهن بعده عظيماً عنده ، وهو من أعلام تعظيم الله لرسوله ، وإيجاب حرمته حياً وميتاً اهـ .

خامسها : أفادت الآية أن ما يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم ، يحرم فعله ، ولو كان مباحاً في الأصل .

(تنبيه) قوله تعالى (فإذا طعمتم فانتشروا) هذا أدب أدب به الثقلاء روى الثعلبي عن العلاء ، قال : سمعت ابن عائشة يقول : حسبك في الثقلاء أن الله تعالى لم يحتملهم ، وقال (فإذا طعمتم فانتشروا) قلت : ويناسب هذا ما ورد عن الشافعي أن سائلا سأله : أيمرض الروح ؟ قال : نعم ، من ظل الثقلاء . وبعد مدة كبيرة ، مر السائل عليه ، فوجده جالساً بين ثقيلين . فسأله : كيف الروح يا أبا عبد الله ؟ فأجابه على الفور : في النزع ! .

قوله تعالى (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) يفيد تشريف النبي صلى الله عليه وسلم من جهتين :

الأولى : قال الإمام سهل بن محمد بن سليمان : هذا التشريف الذي شرف الله به محمداً صلى الله عليه وسلم ، بهذه الآية ، أجمع وأتم من تشريف آدم عليه السلام ، بسجود الملائكة له ، لأنه لا يجوز أن يكون الله مع الملائكة في ذلك التشريف . وقد أخبر الله تعالى عن نفسه بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم عن الملائكة بالصلاة عليه .

فتشريف يصدر عنه ، أبلغ من تشريف تختص به الملائكة ، من غير أن يكون الله تعالى معهم فيه .

والثانية : أن الله تعالى أمر عباده بالصلاة على نبيه صلى الله عليه وسلم ، وجعلها قربة يتقرب بها إليه سبحانه ، وهذا تشريف لم ينله رسول ولا ملك .

(تنبيه) قال الحافظ السخاوى فى (القول البديع) : الملائكة لا يحصى عددهم إلا الله تعالى . لأن منهم الملائكة المقربين ، وحملة العرش ، وسكان سبع سماوات ، وخزنة الجنة والنار ، والحفظة على الأعمال ، وبنى آدم ، كما فى قوله تعالى (يحفظونه من أمر الله) والموكلين بالبحار والجبال والسحاب والأمطار والأرحام والنطف والتصوير ونفخ الأرواح فى الأجساد وخلق النبات وتصريف الرياح وجرى الأفلاك والنجوم وإبلاغ صلاتنا على النبى صلى الله عليه وسلم ، وكتابة الناس يوم الجمعة ، والتأمين على قراءة المصلين ، وقول ربنا ولك الحمد ، والداعين لمنتظر الصلاة ، واللاعنين لمن هجرت راش زوجها ، إلى غير ذلك مما وردت به الأحاديث الصحيحة وغيرها ، وأكثر ذلك موجود فى كتاب العظمة لأبى الشيخ ابن حبان الحافظ . وثبت فى المستدرك للحاكم من حديث عبد الله بن عمرو (إن الله جزأ الخلق عشرة أجزاء فجعل الملائكة تسعة أجزاء وجزءاً سائر الخلق) وفى حديث المعراج المتفق على صحته (إن البيت المعمور يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا لم يعودوا) وفى حديث أبى ذر عند الترمذى وابن ماجه والبزار ، مرفوعاً (أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك واضع جبهته ساجد) وفى حديث جابر ، عند الطبرانى مرفوعاً ـ ونحوه من حديث عائشة عند الطبرانى ـ (ما فى السموات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد) ومعلوم أن الجميع يصلون على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بنص القرآن . حيث كانوا ، وأين كانوا . وهذا مما خصه الله به دون سائر الأنبياء والمرسلين . قلت : ودون الملائكة أيضاً .

٢٧ – سورة سبأ

قوله تعالى (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) يفيد عموم رسالته صلى الله عليه وسلم ، وقد تقدم هذا غير مرة ، وهو من خصوصياته[1] .

٢٨ – سورة فاطر

قوله تعالى (وإن كذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور) قال الزمخشرى : نعى به على قريش سوء تلقيهم لآيات الله وتكذيبهم بها ، وسلى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن له أسوة حسنة فى الأنبياء قبله ، ثم جاء بما يشتمل على الوعد والوعيد من رجوع الأمور إلى حكمه ومجازاة المكذب والمكذب بما يستحقانه .

فإن قلت : ما معنى التنكير فى رسل ؟ قلت : معناه : فقد كذبت رسل أى رسل ذوو عدد كثير ، وأولو آيات ونذر ، وأهل أعمار طوال ، وأصحاب صبر وعزم ، وما أشبه ذلك . وهذا أسلى له وأحث على المصابرة اهـ .

قوله تعالى (والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد) قال : أصله والذين مكروا المكرات السيئات ، أو أصناف المكر السيئات . وعنى بهن مكرات قريش حين

---

(١) وقال تعالى (قل إنما أعظكم بواحدة) أرشدكم وأنصحكم بخصلة واحدة ، وهى (أن تقوموا لله) أى قيامكم ونهوضكم بهمة ، مخلصين لله تعالى معرضين عن المراء والتقليد (مثنى وفرادى) متفرقين اثنين اثنين ، وواحداً واحداً ، لأن الازدحام يشوش الخاطر ، ويبعد عن التفكير المتزن (ثم تتفكروا) فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به . لتعلموا حقيقته ، وتعلموا (ما بصاحبكم من جنة) أى ما به من جنون يحمله على ادعاء الرسالة ، بل علمتموه أرجح قريش عقلا ، وأرزنهم حلما ، وأثقبهم ذهناً ، وأصلهم رأيا ، وأصدقهم قولا ، وأنزههم نفساً ، وأجمعهم لما يحمد عليه الرجال ، ويمدحون به . فكان مظنة لأن تظنوا به الخير ، وترجحوا فيه جانب الصدق . ويكفيكم أن تطالبوه بآية ، فإذا أتى بها تبين أنه (إن) ما (هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد) وهذا من دفاع الله عن نبيه .

اجتمعوا فى دار الندوة ، وتداوروا الرأى فى إحدى ثلاث مكرات يمكرونها برسول الله صلى الله عليه وسلم ، إما إثباته أو قتله أو إخراجه ،كما حكى الله سبحانه عنهم (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك) (ومكر أولئك هو يبور) يعنى ومكر أولئك الذين مكروا تلك المكرات الثلاث هو خاصة يبور أى يكسد ويفسد دون مكر الله بهم ، حين أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم فى قليب بدر ، فجمع عليهم مكراتهم جميعاً ، وحقق فيهم قوله (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) وقوله (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله . ا هـ . وعبر بأولئك إشارة لبعـــدهم عن الرحمة واشتهارهم بالبغى[1] .

قوله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) الآية ، يفيد اصطفاء الأمة المحمدية ، وما ذاك إلا ببركة نبيها صلى الله عليه وسلم .

وقال الزمخشرى : فإن قلت : ما معنى قوله (ثم أورثنا الكتاب ؟) قلت : فيه وجهان :

أحدهما : أنا أوحينا إليك القرآن ثم أورثناه من بعدك أى حكمنا بتوريثه ، أو قال : أورثناه وهو يريد نورثه ـ لما عليه أخبار الله ـ (الذين اصطفينا من عبادنا) وهم أمته من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة ، لأن الله اصطفاهم على سائر الأمم ، وجعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس ، واختصهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسل الله ، وحمل الكتاب الذى هو أفضل كتب الله . ثم ذكر الوجه الثانى ، وهو يرجع إلى هذا المعنى أيضاً .

(تنبيه) صدرت هذه الآية تذكر المصطفين من عباد الله ، ثم قسمتهم إلى ظالم

---

(١) قوله تعالى (والذى أوحينا إليك من الكتاب) القرآن . ومن للتبيين (هو الحق مصدقاً) حال مؤكدة ، لأن الحق لا ينفك عن هذا التصديق (لما بين يديه) لما تقدمه من الكتب (إن الله بعباده لخبير بصير) يعنى أنه خبرك وأبصر أحوالك فرآك أهلا لأن يوحى إليك هذا الكتاب المعجز الذى هو عيار على سائر الكتب ، فالآية مدح للقرآن الكريم ، وللنبى صلى الله عليه وسلم .

لنفسه مجرم ، ومقتصد خلط عملا صالحاً وآخر سيئاً ، وسابق غلبت حسناته على سيئاته ثم ختمت بجنات عدن يدخلونها جميعاً . فاستفيد منها أن عصاة المسلمين لا يخلدون فى النار ، وأن مآلهم الجنة .

٢٩ — سورة يس

قوله تعالى (يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين) الآية ، رد على الكفار الذين أنكروا رسالته عليه الصلاة والسلام ، ولهذا جاء مؤكداً بالقسم وإن واقترن خبرها باللام .

قال الزمخشرى : فإن قلت : أى حاجة إلى قوله (على صراط مستقيم) وقد علم أن المرسلين لا يكونون إلا على صراط مستقيم ؟ قلت : الغرض وصفه ووصف ما جاء به من الشريعة ، فجمع بين الوصفين فى نظام واحد . كأنه قال : إنك لمن المرسلين الثابتين على طريق ثابت ، وأيضاً فإن التنكير فيه دال على أنه أرسل من بين الصرط المستقيمة على صراط مستقيم لا يكتنه وصفه . اهـ فتنكير صراط أفاد تفخيمه وتعظيمه .

قوله تعالى (وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) رد لقول الكفار فى النبى صلى الله عليه وسلم : شاعر ، ولقولهم فى القرآن شعر وهذا يؤيد ما ذكرناه غير مرة أن الله تعالى تولى الدفاع عن نبيه صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى (فلا يحزنك قولهم) الآية . قال الزمخشرى : المعنى : فلا يهمك تكذيبهم وأذاهم وجفاؤهم ، فإنا عالمون بما يسرون لك فى عداوتهم وما يعلنون وإنا مجازوهم عليه ، فحق مثلك أن يتسلى بهذا الوعيد ، ويستحضر فى نفسه صورة حاله وحالهم فى الآخرة حتى ينقشع عنه الهم ولا يرهقه الحزن اهـ .

٣٠ ـ سورة الصافات

قال تعالى (إنهم) أى المشركين (كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون) عن قولها وعن الاعتراف بما أفادته من التوحيد (ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) يعنون النبي صلى الله عليه وسلم (بل جاء بالحق) رد عليهم (وصدق المرسلين) هذا مثل قوله تعالى (مصدقا لما بين يديه) .

قال تعالى (فتول عنهم) أعرض عنهم (حتى حين) وهو موعد نصرك عليهم وهو يوم بدر أو يوم الفتح (وأبصرهم) وما يحصل لهم من القتل والأسر فى الدنيا، والعذاب فى الآخرة (فسوف يبصرون) ما يحصل لك من النصر والتأييد فى الدنيا، والثواب الكبير فى الآخرة . وأمره بالإبصار للدلالة على أن ذلك قريب الوقوع ،كأنه واقع أمامه ، مشاهد له . وفى هذا تسلية له صلى الله عليه وسلم ، وتنفيس عنه . وقوله تعالى (وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون) تسلية بعد تسلية ، وتأكيد . لوقوع الميعاد إلى تأكيد ؛ وإطلاق لفعلى الإبصار بعد تقييد ، للإشعار بأنه يبصر ، وهم يبصرون مالا يحيط به الوصف من أنواع المسرة والثواب ، وصنوف المساءة والعذاب . وفى هذا دلالة على عناية الله بنبيه ، حسبما نبهنا عليه غير مرة .

٣١ ـ سورة الزمر

قوله تعالى (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) الآية . يرد أيضاً على الكفار قولهم . فى النبي صلى الله عليه سلم ـ : إنما يعلمه بشر .

٣٢ ـ سورة الشورى

قوله تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وماوصينا به إبراهيم وموسى عيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) يفيد فضل النبي صلى الله عليه وسلم على هؤلاء الرسل الذين هم أولو العزم ، وأصحاب الشرائع ، من جهتين :

إحداهما : التعبير فى جانبهم بوصى ، إشارة لما قلناه فى المقدمة : أن ما أوتيه النبيون لم يعد أن يكون وصايا تختص بقبيل من الناس .

ثانيتهما : التعبير فى جانبه عليه الصلاة والسلام بأوحينا ، تعظيما لشأنه ، كأنه المخصوص بالوحى . وإشارة إلى أن أولئك الأنبياء عليهم السلام ، كانوا أوصياء فى غيبته صلى الله عليه وسلم : ولهذا يقول فى الشفاعة لأهل الموقف يوم القيامة (يارب أسألك أمتى) فأمته من ضمهم المحشر ، والأنبياء أوصياء عنه .

٣٣ — سورة الزخرف

قال الله تعالى . (وقيله) أى قول الرسول صلى الله عليه وسلم . قرىء بفتح اللام وكسرها وضمها ، واختلف فى توجيه ذلك على الإعراب ، حكاها الزمخشرى وضعفها . ثم قال : وأقوى من ذلك وأوجه أن يكون الجر والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه ، والرفع على قولهم : أيمن الله ، وأمانة الله ، ويمين الله ، ولعمرك .

ويكون قوله (إن هؤلاء قوم لا يؤمنون) جواب القسم . كأنه قيل : وأقسم بقيله : يارب ، أو وقيله : يارب ، قسمى . إن هؤلاء قوم لا يؤمنون . (فاصفح عنهم) فأعرض عن دعوتهم ، يائساً من إيمانهم ، وودعهم وتاركهم (وقل) لهم (سلام) أى أسلم منكم ومتاركة (فسوف يعلمون) وعيد من الله لهم وتسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم . والضمير فى : وقيله ، لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإقسام الله بقيله[1] ، رفع منه وتعظيم لدعائه والتجائه إليه . ا ه .

٣٤ — سورة الأحقاف

قوله تعالى (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين) الآية . يفيد إرساله عليه الصلاة والسلام

---

(١) وهذا يؤيد أن (لعمرك) فى سورة الحجر إقسام بحياته صلى الله عليه وسلم كما سبق بيانه ، وعلى هذا يكون الله تعالى أقسم بحياة نبيه ، وبقيله .

إلى الجن ، وهذا من خصوصياته . وقولهم (إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى) لا يدل على أن موسى أرسل إليهم ، وإنما يدل على أنهم آمنوا به . ومن آمن برسول ، واتبع شرعه قبل نسخه ، كان ناجياً ، وإن لم يكن ذلك الرسول مرسلا إليه . أما أن يكون نبي أرسل إلى الجن ، بحيث يجب عليهم الإيمان به ، واتباع شريعته ، فلم يكن هذا إلا لنبينا صلى الله عليه وسلم .

٣٥ — سورة القتال

قوله تعالى : والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم) الآية . يفيد أن الإيمان والعمل الصالح ، لا يقبلان إلا بالإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم .

قال الزمخشري : وقوله (وآمنوا بما نزل على محمد) اختصاص للإيمان بالمنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين مايجب الإيمان به ، تعظيماً لشأنه ، وتعليماً لأنه لا يصح الإيمان ولا يتم إلا به . وأكد ذلك بالجملة الاعتراضية التي هي قوله (وهو الحق من ربهم) وقيل : معناها : أن دين محمد هو الحق ، إذ لا يرد عليه النسخ ، وهو ناسخ لغيره . اهـ .

قوله تعالى (واستغفر لذنبك) أمر له بالتحدث بنعمة الله عليه بعصمته من الذنوب والتحدث يكون في صورة طلب واستغفار ، كما يكون في صيغة خبر واستبشار . والحكمة في هذا الأمر ، تنبيه الأمة إلى الاستغفار ، تأسيا بنبيها صلى الله عليه وسلم . وعطف قوله : والمؤمنين والمؤمنات) ليفيد تشريف الأمة باستغفار نبيها لها ، مع الإشارة إلى أنه عليه الصلاة والسلام مأذون له بالشفاعة فيهم ، لأن الاستغفار استشفاع .

٣٦ — سورة الفتح

نزلت هذه السورة على النبي صلى الله عليه وسلم ، مرجعه من الحديبية ، فقال (لقد أنزلت علي سورة هي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس) وقرأ فاتحتها ، الحديث .

قوله تعالى (إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم

نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً) يفيد ما أنعم الله به على نبيه من الفتح الظاهر ، والعصمة من الذنوب ـ إذ المغفرة كناية عنها[1] ـ وإتمام النعمة ، والهداية إلى الصراط المستقيم ، والنصر الذى لا ذل معه .

قوله تعالى (إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً) يفيد عموم أوصافه الأربعة وهى : الرسالة والشهادة والبشارة والنذارة ، لأن حذف المتعلق يؤذن بالعموم . ويفيد أيضاً أن نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيمه ، واجبان كالإيمان به .

قوله تعالى (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم) يفيد أن متابعة رسول الله ، متابعة لله . وطاعته طاعته . وأن كل ما يصدر عن النبى صلى الله عليه وسلم ، بإذن الله ورضاه ، وهذه منزلة لم ينلها رسول ولا ملك .

وقوله تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) يؤيد ما قلناه آنفاً أن ما يصدر عن النبى صلى الله عليه وسلم ، يرضاه الله تعالى . ومن دلائل عناية الله بنبيه أنه تعالى ذكر الشجرة التى وقعت المبايعة تحتها ، وهذا يفيد أن رضاه سبحانه وتعالى عم الأشخاص الذين بايعوا ، ومكان مبايعتهم .

قوله تعالى (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً) يفيد أن دين الإسلام الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم ، هو دين الحق وأن ما عداه من الأديان باطل . وأنه ظاهر على جميع الأديان بقوة حجته ، وموافقة عقيدته للفطر السليمة ، وسماحة تعاليمه ، ومسايرتها لكل زمان ومكان ، وتمشيها مع العقل السليم ، والمنطق القويم . والله تعالى شهيد على ذلك ، وكفى به شهيداً .

قوله تعالى (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) إلى آخر

---

(١) وجه ذلك : أن العصمة تحول بين الشخص وبين وقوع الذنب منه ، والمغفرة تحول بين الشخص وبين وقوع العقاب عليه ، فكنى عن الأولى بالثانية بجامع الحيلولة ، لأن من لا يقع منه ذنب . لا يقع عليه عقاب ، واختيرت هذه الكناية ـ أعنى الاستعارة ـ لأن المقام مقام امتنان ، ثم المراد بعد هذا ، ليظهر أثر عصمتك ، فلا يبطرك الفتح والنصر .

السورة ، يفيد تسجيل الله تعالى شهادته لمحمد بأنه رسوله . وتسجيل صفات أصحابه فى التوراة والإنجيل ، وفى هذا من علو منزلتهم ببركة صحبته صلى الله عليه وسلم، مالا يخفى.

(تنبيه) قال الصاوى : هذه السورة آخر القسم الأول من القرآن ، وهو المطول ، وقد ختم بسورتين ، هما فى الحقيقة للنبى صلى الله عليه وسلم ، وحاصلهما الفتح بالسيف، والنصر على من قاتله ظاهراً .كما ختم القسم الثانى ـ المفصل ـ بسورتين ، هما نصرة له صلى الله عليه وسلم بالحال ، على من قصده بالضر باطنا . اه وهو استنباط جيد

٣٧ — سورة الحجرات

قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) نهى عن التقدم بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم بقول أو فعل ، واعتبار التقدم بين يديه ، تقدما بين يدى الله سبحانه وتعالى . وعلى هذا لا يجوز لشخص أن يقدم رأيا من الآراء على حديث صح عن النبى صلى الله عليه وسلم . وقد وقع كثير من المقلدين فى هذا المحظور ، حيث قدموا آراء أئمتهم على ما صح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى مخالفة صريحة لكلام الله سبحانه وتعالى .

قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) يفيد أمرين .

(أحدهما) حرمة رفع الصوت فوق صوت النبى صلى الله عليه وسلم إذا تكلم ، ويدخل فى هذا حديثه عليه الصلاة والسلام . فلا يجوز رفع الصوت حين قراءة الحديث النبوى الشريف ، ومن فعل ذلك يخشى عليه حبوط عمله .

(ثانيهما) حرمة الجهر بالكلام حين مناجاته عليه الصلاة والسلام ، بل يجب الكلام معه بأدب وخفض صوت . وقد أثنى الله على أبى بكر رضى الله عنه وعلى غيره ممن التزموا هذا الأدب الواجب ، فقال سبحانه (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) وعلى هذا يجب على زائر الروضة الشريفة أن يسلم على النبى صلى الله عليه وسلم بأدب وخفض

صوت ، مع إطراق وخشوع . لأنه صلى الله عليه وسلم حى فى قبره الشريف ، يرد السلام على من يسلم عليه . وكان عمر رضى الله عنه ينهى عن رفع الصوت فى المسجد النبوى ، احتراماً له صلى الله عليه وسلم . وكانت عائشة رضى الله عنها إذا سمعت دقاً من البيوت المجاورة للمسجد ، بعثت لسكانها : لا تؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ تنبيهات ﴾

(الأول قال الزمخشرى : ليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر ، ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة ، لأن ذلك كفر ، والمخاطبون مؤمنون ، وإنما الغرض صوت هو فى نفسه والمسموع من جرسه ، غير مناسب لما يهاب به العظماء ، ويوقر الكبراء ، فيتكلف الغض منه ورده إلى حد يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزير والتوقير وقال أيضاً : كان أبو بكر رضى الله عنه إذا قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد أرسل إليهم من يعلمهم كيف يسلمون ؟ ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(الثانى) قال الزمخشرى : هذه الآية - يعنى إن الذين يغضون أصواتهم - بنظمها الذى رتبت عليه من إيقاع الغاضين أصواتهم اسما لإن المؤكد ، وتصيير خبرها جملة من مبتدأ وخبر معرفتين معاً ، والمبتـــدأ اسم الإشارة واستئناف الجملة المستودعة ماهو جزاؤهم على عملهم ، وإيراد الجزاء نكرة مبهماً أمره ، ناظرة فى الدلالة على غاية الاعتداد والارتضاء لما فعل الذين وقروا رسول الله صلى الله عليه وسلم . من خفض أصواتهم ، وفى الإعلام بمبلغ عزة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقدر شرف منزلته وفيها تعريض بعظم ما ارتكب الرافعون أصواتهم ، واستيجابهم ضد ما استوجب هؤلاء .

(الثالث) أسند القاضى عياض فى الشفا عن ابن حميد ، قال : ناظر أمير المؤمنين أبو جعفر مالكاً فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له مالك : يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك فى هذا المسجد ، فإن الله تعالى أدب قوماً فقال (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) ومدح قوما فقال (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله) الآية ، وذم قوما فقال (إن الذين ينادونك من وراء

الحجرات) الآية ، وأن حرمته ميتاً كحرمته حياً . فاستكان لها أبو جعفر ، وقال : يا أبا عبدالله أستقبل القبلة وأدعو ؟ أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : ولم تصرف وجهك عنه ؟ وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة! بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله ، قال الله تعالى (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك) الآية .

جاء وفد بنى تميم وقت الظهيرة والنبى صلى الله عليه وسلم قائل فى منزله ، فنادوه غير مراعين راحته . فذمهم الله تعالى بقوله (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم) وهذا يفيد عناية الله بنبيه صلى الله عليه وسلم . وأن جهل أولئك الوفد بما يجب له من تعظيم واحترام ، لم يعفهم من توجيه الذم إليهم ، بل فى تذييل الآية بجملة (والله غفور رحيم) تعريض بأنهم آثمون فيما فعلوا ، وتحريض لهم على التوبة منه .

قال الزمخشرى : ورود الآية على هذا النمط فيه ما لا يخفى على الناظر من بينات إكبار محل النبى صلى الله عليه وسلم وإجلاله . منها مجيئها على النظم المسجل على الصائحين به بالسفة والجهل . ومنها إيقاع لفظ الحجرات كناية عن خلوته مع بعض نسائه ، وتعريفها باللام دون الإضافة (١) ، ومنها أن شفع ذمهم باستركاك عقولهم ، وقلة ضبطهم لمواضع التمييز فى المخاطبات ، تهوينا للخطب على النبى صلى الله عليه وسلم وتسلية له ، وإماطة لما تداخله من إيحاش تعجرفهم ، وسوء أدبهم . وهلم جرا من أول السورة إلى آخر هذه الآية ، فتأمل كيف ابتدىء بإيجاب تقديم الأمور التى تنتمى إلى الله ورسوله . على الأمور كلها من غير حصر ولا تقييد ، ثم أردف ذلك النهى عما هو من جنس التقديم ، من رفع الصوت والجهر ، كأن الأول بساط للثانى ووطاء لذكره . ثم ذكر ما هو ثناء على الذين غضوا أصواتهم ، دلالة على عظيم موقعه عند الله . ثم جىء على عقب ذلك بما هو أطم ، وهجنته أتم من الصياح برسول الله صلى الله عليه وسلم فى حال خلوته ببعض حرماته ، من وراء الجدر ، كما يصاح بأهون الناس ، لينبه على فظاعة

---

(١) أى لم يقل حجرات أزواجك ، صونا لهن أن يذكرن فى هذا الموطن .

ما جسروا عليه ، لأن من رفع قدره عن أن يجهر له بالقول ـ خاطبه جلة المهاجرين والأنصار بأخي السرار ـ كان صنيع هؤلاء من المنكر الذى بلغ من التفاحش مبلغاً . ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الألباب ، وتقتبس محاسن الآداب ا هـ . [1]

٣٨ — سورة النجم

قوله تعالى (والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى) يفيد نفى الضلال عنه صلى الله عليه وسلم ، مع تأكيد النفى بالقسم ، والتعبير بصاحبكم يفيد أن كفار مكة ، فى اتهامهم إياه بالضلال والغى ، مكابرون . لأنهم يعرفونه منذ نشأته بينهم بالأمانة والصدق ورجاحة العقل والخلق القويم . هذا وفى القسم بالنجم ، إشارة إلى أنه عليه الصلاة والسلام يهتدى به . كما يهتدى بالنجم .

قوله تعالى (وما ينطق عن الهوى) زعم بعض المبتدعة أنه خاص بنفى الهوى فى النطق بالقرآن ! وأن تعميمه فى جميع ما يلفظ به عليه الصلاة والسلام ، مما ألقاه الشيطان على أفواه الناس !! وما درى المسكين أن الشيطان هو الذى أوحى إليه بهذه الكلمة التى دلت على جهله بعلم الأصول ، وقواعد اللسان العربى . فإن من المعلوم للمتدرجين فى هذين العلمين أن الفعل إذا وقع فى سياق النفى أو الشرط [2] ، دل على العموم وضعاً

---

(١) وقال أيضاً : فإن قلت : هل من فرق بين (حتى تخرج) وإلى أن تخرج ؟ قلت : إن حتى مختصه بالغاية الضرورية ، تقول : أكلت السمكة حتى رأسها ، ولو قلت : حتى نصفها أو صدرها ، لم يجز . وإلى ، عامة فى كل غاية . فقد أفادت حتى بوضعها أن خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، غاية قد ضربت لصبرهم . فما كان لهم أن يقطعوا أمراً دون الانتهاء إليه . فإن قلت : فأى فائدة فى قوله (إليهم) ؟ قلت : فيه أنه لو خرج ، ولم يكن خروجه إليهم ولأجلهم ، للزمهم أن يصبروا إلى أن يعلموا أن خروجه إليهم . ا هـ قلت : هاتان نكتتان بديعتان ، تفيدان غاية الأدب مع النبى صلى الله عليه وسلم .

(٢) عموم النكرة فى سياق النفى لا خلاف فيه ، وأما فى سياق الشرط فاختلف فيه أهل الأصول . وممن قال بالعموم ، أمام الحرمين . حتى إنه استدرك على الأصوليين والفقهاء إطلاق قولهم : النكرة فى سياق الإثبات تخص . وقال : إن الشرط يعم ، والنكرة فى سياقه تعم . واستدل =

بلا نزاع . والمفسرون حين عمموا الآية فى جميع ما ينطق به عليه الصلاة والسلام من قرآن وسنة ، إنما قالوا بما يدل عليه اللفظ العربى دلالة وضعية لغوية ، وبما يقتضيه السياق أيضاً . لأن الكلام مسوق لتبرئته عليه الصلاة والسلام مما رماه به المشركون من الضلال والغى والهوى ، فوجب أن يكون النفى عاماً فى الهوى ، كما كان عاما فى الضلال والغى . ولأنه لو قصر النفى فى الهوى عن القرآن ، كان ذلك تسليماً بأنه عليه الصلاة والسلام ينطق عن الهوى فى السنة !!! وهل يليق بمسلم أن يحمل الآية على هذا المعنى الذى لا يدل عليه اللفظ ، ولا يقتضيه السياق ؟ ! (إن هو) أى ما ينطق به (إلا وحى يوحى) غير أن القرآن وحى متلو ، والسنة وحى غير متلو .

قوله تعالى (علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى) الآية يفيد أمرين :

(أحدهما) تزكية علمه عليه الصلاة والسلام ، بأنه تلقاه بواسطة ملك قوى ذى عزم ، وهو جبريل عليه السلام .

(ثانيهما) رؤيته لجبريل على صورته الأصلية ، ودنو جبريل منه ، حتى كان قاب قوسين أو أدنى . ولم يحصل هذا لنبى قبله ، بل كان الأنبياء يرونه فى صورة إنسان (ما كذب الفؤاد) فؤاد النبى عليه الصلاة والسلام أى ما أنكر (ما رأى) ببصره من صورة جبريل الحقيقية : والآية ـ كما ترى ـ تتعلق برؤية جبريل التى حصلت بمكة ،

له ابن المنير بقوله تعالى (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهـــو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل) الآية . قال : وفى هذه الآية ، الإمام ومن قال بقوله كفاية . وذلك أن الشيطان ذكر فيها منكراً فى سياق شرط . ونحن نعلم أنه إنما أراد عموم الشياطين ، لا واحداً لوجهين :

أحدهما : أنه قد ثبت أن لكل أحد شيطانا . فكيف بالعاشى عن ذكر الله ؟ .

والآخر : أنه أعاد عليه الضمير مجموعاً فى قوله (وإنهم) فإنه عائد إلى الشيطان قولا واحداً ولولا إفادته عموم الشمول . لما جاز عود ضمير الجمع عليه بلا إشكال . قلت : ويدل لهم أيضاً قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) الآية ، فاسق ونبأ ذكرا منكرين فى سياق شرط ، والمراد بهما العموم ، بلا خلاف .

قبل الإسراء، وتؤكد الآية موافقة القلب للبصر فيها . ولكن مبتدعا جاهلا قحم فى التفسير ، فهم أن الآية تتعلق بالإسراء وأخذ منها دليلا قاطعاً على أن المعراج لم يكن يقظة بالجسد والروح !!! ففضح جهله ، وغفل عن قوله تعالى (أفتمارونه على ما يرى) فإنه يقضى على استنباطه .

قوله تعالى (ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى) الآية يفيد أمرين :

(أحدهما) أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه السلام ، بصورته الحقيقية مرة أخرى .

(ثانيهما) أن الرؤية الآخرة حصلت عند سدرة المنتهى . فنى الآية إشارة إلى المعراج الذى تحدث عنه النبى صلى الله عليه وسلم فى الأحاديث المتواترة . وفى الآية تأكيد لهذه الإشارة من وجوه .

١ — القسم الذى تفيده اللام ، إذ المعنى : والله لقد رآه . ولو كانت هذه الرؤية وقعت فى الأرض ، مثل السابقة ، لم يكن فيها ما يدعو إلى القسم .

٢ — جملة (إذ يغشى السدرة ما يغشى) فإنها سيقت لبيان ما كان يغشى السدرة حين كان النبى صلى الله عليه وسلم هناك ، وإلا لم يكن لذكرها هنا فائدة .

٣ — جملة (ما زاغ البصر وما طغى[1]) فإنها تفيد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان عند السدرة ثابت الجنان ، بحيث لم يزغ بصره ، رغم ما رأى من الآيات العظيمة .

٤ — جملة (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) الواقعة جواباً لقسم محذوف . وهى تفيد أنه رأى صلى الله عليه وسلم هناك آيات كبرى ، إلى جانب رؤية جبريل عليه السلام وهذا واضح إلا أن مبتدعين جاهلين أبديا فى الآية رأيين ، يدرك سقوطهما بمجرد

---

(١) من أول السورة إلى هذه الآية ، نزه الله علم نبيه عن الضلال ، وعمله عن الغى ، ونطقه عن الهوى ، وفؤاده عن التكذيب ، وبصره عن الزيغ والطغيان . وأكد التنزيه المذكور بالإقسام عليه ، وناهيك بذلك من رب العزة جل جلاله ثناء . قاله العلامة الصاوى .

سماعهما . أما أحدهما فقال فى قوله تعالى (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى) : والكلام صالح لأن يكون النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه المرة ، كان فى الأرض أيضاً ورأى جبريل عند سدرة المنتهى . كما تقول : رأيت النجمة فى السماء !!! وهذا يدل على جهله بعلوم البلاغة ، كما دل كلامه السابق على جهله بالأصول ، وقواعد اللسان العربى ! وأما الثانى - وهو الذى أخذ من قوله تعالى (ما كذب الفؤاد ما رأى) عدم وقوع المعراج - فقال فى سدرة المنتهى : إنها شجرة فى الأرض ينتهى إليها المسافرون وغيرهم ، فيستريحون عندها !!! ثم أدركه الورع ، ففوض علمها إلى الله تعالى !! .

(تنبيهان) : الأول : أول كثير من المفسرين الرؤية فى الآيات المذكورة ، على رؤية الله تعالى . ولكنا خالفناهم لسببين : -

١ — أن الحديث صرح بأنها رؤية جبريل عليه السلام ، بصورته الحقيقية ، وهو فى الصحيح .

٢ — أن سياق الآيات لا يساعد على تأويلهم إلا بشىء من التكلف . نعم رأى النبى صلى الله عليه وسلم ربه تبارك وتعالى على الراجح عند أكثر العلماء ؟ كما قال النووى.

وصح ذلك عن ابن عباس وأنس وأبى ذر ، وذهب إليه الحسن وكعب وأحمد ابن حنبل وابن خزيمة . وانظر تفصيل هذا الموضوع ، مع الجواب عند نفى عائشة ، فى كتابنا (الأحاديث المنتقاه فى فضائل سيدنا رسول الله) .

(الثانى) ذكر بعض المفسرين قصة الغرانيق فى قوله تعالى (أفرأيتم اللات والعزى) الآية . وبعضهم ذكرها عند قوله تعالى فى سورة الحج (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) الآية . وهى قصة باطلة ، بينا بطلانها فى (خواطر دينية) بما لا مزيد عليه .

٣٩ — سورة القمر

قوله تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر) يفيد وقوع انشقاق القمر ، وهو آية من آيات النبي صلى الله عليه وسلم الظاهرة ، ومعجزة من معجزاته الباهرة . قال أنس ابن مالك : أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية ، فأراهم انشقاق القمر شقتين . رواه الشيخان .

ورويا عن ابن عباس، قال : إن القمر انشق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن مسعود : بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى ، إذ انفلق القمر فلقتين . فكانت فلقة وراء الجبل ، وفلقة دونه . فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم (اشهدوا) رواه الشيخان أيضاً . وقال ابن عمر : وكانت فلقة فوق الجبل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اللهم اشهد) رواه مسلم في صحيحه . وقال جبير بن مطعم : انشق القمر ونحن بمكة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صار فرقتين : على هذا الجبل . وعلى هذا الجبل . فقالوا : سحرنا محمد . فقال بعضهم : لئن كان سحرنا ، ما يستطيع أن يسحر الناس كلهم . صححه الترمذي ، والحاكم على شرط الشيخين ، وسلمه الذهبي . وقال علي عليه السلام : انشق القمر ونحن مع النبي صلى الله عليه وسلم. رواه الطحاوي في مشكل الآثار . وأنكر بعض المبتدعة انشقاق القمر ، وأولوا (انشق) بأنه ينشق يوم القيامة . وهذا رأي باطل ، وتأويل عن التحقيق عاطل، وبيان ذلك من وجوه :

(الأول) أن التأويل إنما يلجأ إليه ، عند استحالة المعنى ، أو تعذره . وانشقاق القمر ليس بمستحيل ، ولا متعذر .

(الثاني) أن الصحابة الذين شاهدوه أخبروا بوقوعه ،كما سبق عنهم آنفاً .

(الثالث) أن أنساً رضي الله عنه صرح بأن الآية المذكورة نزلت بسبب حادثة انشقاق القمر رواه الترمذي ، وقال : حسن صحيح .

(الرابع) أن قوله تعالى (وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) يؤيد وقوعه أيضاً .

قال الزمخشري : وعن بعض الناس أن معناه ينشق يوم القيامة . وقوله (وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) يرده ، وكفى به راداً . اهـ .

(الخامس) أن أهل السنة أجمعوا على وقوع هذه المعجزة ، تمسكا بظاهر القرآن ، وبصريح السنة الصحيحة . قال الحافظ ابن عبد البر : قد روى حديث انشقاق القمر جماعة كثيرة من الصحابة ، وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين ، ثم نقله عنهم الجم الغفير ، إلى أن انتهى إلينا ، وتأيد بالآية الكريمة . وقال القاضي عياض في الشفا : قال الله تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضي ، وإعراض الكفرة عن آياته ، وأجمع أهل السنة والمفسرون على وقوعه . وقال أيضاً في الشفا : أما انشقاق القمر ، فالقرآن نص بوقوعه وأخبر عن وجوده . ولا يعدل عن ظاهره إلا بدليل ، وجاء بنفي احتماله صحيح الأخبار من طرق كثيرة ، فلا يوهن عزمنا خلاف أخرق منحل عرى الدين ، ولا يلتفت إلى سخافة مبتدع يلقي الشك على قلوب ضعفاء المؤمنين . بل نرغم بهذا أنفه ، وننبذ بالعراء سخفه . أما قول من قال : لو وقع الانشقاق ، لنقل متواتراً ، واشترك أهل الأرض في رؤيته ، ولم يختص به أهل مكة . فالجواب عنه من وجوه .

أحدها : أن الانشقاق وقع في الليل ، ومعظم الناس نيام ، وأبواب بيوتهم مغلقة وقل منهم من يتفكر في السماء . أو ينظر إليها ، إلا الشاذ النادر . ومما هو مشاهد معتاد أن كسوف القمر من غيره من العجائب والأنوار الطوالع ، والشهب العظام ، وغير ذلك مما يحدث في السماء بالليل يقع ، ولا يعلم به إلا الآحاد ، ولا علم به عند غيرهم .

ثانيها : إن الانشقاق حصل آية لقوم اقترحوها ، وطلبوا رؤيتها . فلم يتنبه غيرهم لها ، إذ لم يتحدد قبلها موعد وقوعها حتى يترصدها الناس . كما ترصد أهل مصر معجزة عصا موسى حين حدد لوقوعها يوم الزينة ، كما جاء في سورة طه .

ثالثها : أن القمر كان في ليلة الانشقاق ، في بعض المجاري والمنازل التي تظهر

لبعض الآفاق دون بعض ، وهذا ضرورى . كما يكون القمر ظاهراً لقوم غائباً عن آخرين . وكذلك يجد الكسوف أهل بلد دون بلد .

رابعها : أن أهل مكة بعثوا يسألون المسافرين والقادمين من البلاد الأخرى ، فأخبروا أنهم شاهدوه منشقاً . ولذلك قالوا (سحر مستمر) أى قوى عم البلاد والناس.

خامسها : أن ملك بهوبال - واسمه بهوج بال - شاهد الانشقاق ، ذكره الفريشته فى تاريخه . بل شاهده أيضاً ناس كثيرون من بلاد متعددة ، كما فى تاريخ ابن كثير .

سادسها : أن القرآن أخبر عنه ، وهو منقول نقل تواتر . بتلق جيل عن جيل ، فالانشقاق منقول بأعلى تواتر وأقواه .

(تنبيه) قال الإمام الخطابى : انشقاق القمر آية عظيمة ، لا يكاد يعدلها شىء من آيات الأنبياء . وذلك أنه ظهر فى ملكوت السموات ، خارجا عن جملة طباع ما فى هذا العالم المركب من الطبائع ، فليس فيما يطمع فى الوصول إليه بحيلة ، فلذلك صار البرهان به أظهر .

٤٠ — سورة الرحمان

توجه الخطاب فيها إلى الثقلين بالبشارة والإنذار ، وهو من أدلة إرسال النبى صلى الله عليه وسلم إليهما .

٤١ — سورة المجادلة

كان اليهود يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم إذا سلموا عليه : سام عليكم . ويقولون فى أنفسهم : لولا يعذبنا الله بما نقول ! فأنزل الله تعالى يتوعدهم (وإذا جاؤك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها وبئس المصير) وهذا من دلائل عناية الله بنبيه صلى الله عليه وسلم .

أكثر المسلمون المسائل على النبى صلى الله عليه وسلم حتى شقوا عليه . فأراد الله تعالى أن يخفف عنه ، فأنزل (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم

صدقة) الآية : فكف كثير منهم عن المسألة ، بل لم يناجه بعد نزولها غير على عليه السلام ، كان عنده دينار : فصرفه دراهم ، وناجى بها الرسول عدة مرات . ثم نسخها الله بالآية بعدها (أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات) الآية . وكذلك كان يقول . آية فى كتاب الله تعالى لم يعمل بها أحد قبلى ، ولن يعمل بها أحد بعدى ، وهى آية المناجاة . وفيها دليل على أن الله تعالى يحب من المسلمين ألا يشقوا على النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا يضايقوه .

٤٢ — سورة الحشر

لما نزل النبى صلى الله عليه وسلم ببنى النضير ، وتحصنوا بحصونهم ، أمر بقطع نخيلهم وتحريقها . فنادوه : يا محمد . قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه ، فما بال قطع النخيل وتحريقها ؟ فأنزل الله تعالى (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين) وهذا يؤيد ما قدمناه فى سورة الفتح : أن كل ما يصدر عن النبى صلى الله عليه وسلم ، بإذن الله ورضاه . ودعوى اليهود فساد التحريق والإتلاف ، ردها الله بأن حكمته إخزاؤهم ، لأنهم كفروا بالله ورسوله عن جحود وعناد ، واتفقوا مع المشركين على عداوته وحربه .

٤٣ — سورة الصف

قوله تعالى (وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) يفيد أن عيسى عليه السلام ، بشر بالنبى صلى الله عليه وسلم بشارة صريحة وهذا معلوم للباحثين والدارسين فى كتب الديانات ، حتى أن المنصفين من المستشرقين يعترفون بذلك .

(لطيفة) كان أحد القسيسين إذا توسم فى مسلم الجهل بالمسائل الدينية ، ألقى عليه هذا السؤال : هل تؤمن بعيسى؟ فيجيب المسلم : نعم أومن به ، لأن القرآن أثبت رسالته . فيقول القسيس . إذن اتفقنا نحن وأنتم على الإيمان بعيسى ، واختلفنا فى محمد ،

فنحن لا نؤمن به . فيكون عيسى أفضل من محمد ، لأن المتفق عليه ، أفضل من المختلف فيه . فلا يدرى المسلم ما يقول ؟ فألقى مرة على عالم ظنه جاهلا ، سؤاله السابق : هل تؤمن بعيسى ؟ فأجابه العالم : إن كنت تريد عيسى الذى بشر برسول يأتى من بعده اسمه أحمد ، فإنى أؤمن به ، وإن كنت تريد عيسى آخر ، فلا أعرفه . فانقطع القسيس ، ولم يحر جواباً[1] .

ويناسبها ما ذكره المرتضى من أماليه : أن أبا الهذيل العلاف - فى حداثته - بلغه أن يهوديا قدم البصرة . وقطع جماعة من متكلميها . فقال لعمه : يا عم إمض بى إلى هذا اليهودى حتى أكلمه . فقال له عمه : يا بنى كيف تكلمه وقد عرفت خبره ؟ وأنه قطع مشايخ المتكلمين ؟ فقال : لابد من أن تمضى بى إليه ، فمضى به . قال : فوجدته يقرر الناس على نبوة موسى عليه السلام فإذا اعترفوا له بها ، قال : نحن على ما اتفقنا عليه ، إلى أن نجمع على ما تدعونه . فتقدمت إليه ، فقلت : أسألك ؟ أم تسألنى ؟ فقال : بل أسألك . فقلت . ذاك إليك . فقال لى : أتعترف بأن موسى نبى صادق ؟ أم تنكر ذلك فتخالف صاحبك ؟ فقلت له : إن كان موسى الذى تسألنى عنه هو الذى بشر بنبى عليه السلام . وشهد بنبوته وصدقه . فهو نبى صادق . وإن كان غير من وصفت ، فذلك شيطان ، لا أعترف بنبوته . فورد عليه ما لم يكن فى حسابه ، ثم قال لى أتقول : إن التوراة حق ؟ فقلت : هذه المسألة تجرى مجرى الأولى ، إن كانت هذه التوراة التى تسألنى عنها ، هى التى تتضمن البشارة بنبى عليه السلام، فتلك حق . وإن لم تكن كذلك فليست بحق ، ولا أقر بها . فبهت . وأفحم ، ولم يدر ما يقول ؟ ثم قال لى : أحتاج أن أقول لك شيئاً بينى وبينك . فظننت أنه يقول شيئاً من الخير ، فتقدمت إليه ، فسارنى ،

---

(١) مما يناسب هذا ما ورد عن بعض العلماء أنه أسر ببلاد الروم ، فقال لهم : لم تعبدون عيسى ؟ قالوا : لأنه لا أب له . قال : فآدم أولى ، لأنه لا أبوين له . قالوا : كان يحيى الموتى . قال : فحزقيل أولى ، لأن عيسى أحيا أربعة ، وأحيا حزقيل ثمانية آلاف . قالوا : كان يبرىء الأكمه والأبرص . قال : فجرجيس أولى ، لأنه طبخ وأحرق ، ثم قام سالماً . ذكره فى الكشاف عند الكلام على قوله تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم) .

فقال لى : أمك كذا وكذا ـ يعنى زانية ـ وأم من علمك ، لا يكنى . وقدر أنى أثب به ، فيقول : وثبوا بى وشغبوا على ، فأقبلت على من كان فى المجلس ، فقلت : أعزكم الله ، ألستم قد وقفتم على مسألته إياى ؟ وعلى جوابى إياه ؟ قالوا : بلى . قلت : أفليس عليه أن يرد جوابى أيضاً ؟ قالوا بلى . قلت : فإنه لما سارنى شتمنى بالشتم الذى يوجب الحد ، وشتم من علمنى . وإنما قدر أننى أثب عليه ، فيدعى أننا واثبناه وشغبنا عليه . وقد عرفتكم شأنه بعد الانقطاع فانصرونى . فأخذته الأيدى من كل جهة ، فخرج هاربا من البصرة .

قوله تعالى (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) تقدم نظيره فى سورة الفتح . وتقدم مثل هذه الآية فى سورة التوبة ، والحكمة فى تكرارها تأكيد شرك أهل الكتاب ، وأن دينهم منسوخ بدين الإسلام .

٤٤ — سورة الجمعة

قوله تعالى (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) يفيد استمرار ، بعثته عليه الصلاة والسلام ، وفضل الصحابة من بعدهم ببركة صحبته صلى الله عليه وسلم .

٤٥ — سورة المنافقون

قوله تعالى (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون) دافع الله به عن الصحابة الذين هاجروا إلى المدينة ، وكان الأنصار ـ وهم أهل البلد ـ يواسونهم ـ فنهاهم المنافقون عن ذلك ، مؤملين أن ينصرفوا إلى شئون معايشهم وما يصلح حالهم . فرد الله عليهم بأن خزائن السموات والأرض بيده تعالى ، فهو متكفل برزقهم ، لأنهم فى صحبة نبيه

صلى الله عليه وسلم ، قائمون بخدمته ، باذلون أنفسهم فى نصرة دينه[١] .

وقوله تعالى (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) دفاع ثان عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أن عبد الله بن أبى بن سلول ، قال لإخوانه المنافقين ، وهم راجعون من غزوة بنى المصطلق ، مع النبى صلى الله عليه وسلم : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . يقصد بالأذل المهاجرين ، وبالأعز أنفسهم . فرد الله عليهم بأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين،ولم يدافع عن صحابة نبى غير نبينا صلى الله عليه وسلم، لكرامته عليه.

(تنبيه) قوله (ولله العزة) الآية . أصل فى القول بالموجب المعروف فى مبحث القوادح من علم الأصول .

٤٦ — سورة الطلاق

قال تعالى (يا أيها النبى) الآية . قال الزمخشرى : خص النبى صلى الله عليه وسلم بالنداء ، وعم بالخطاب ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم إمام أمته وقدوتهم ، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم : يافلان افعلوا كيت وكيت ، اظهاراً لتقدمه ، واعتباراً لترؤسه وأنه مدره القوم ولسانهم ، والذى يصدرون عن رأيه ، ولا يستبدون بأمر دونه . فكان هو وحده فى حكم كلهم ، وسادا مسد جميعهم . اهـ ومثل هذا قول الله تعالى حكاية عن فرعون (قال فمن ربكما يا موسى) عمهما بالخطاب ، وخص موسى بالنداء لأنه أفضلهما وأجلهما .

٤٧ — سورة التحريم

قوله تعالى (ياأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك والله غفور رحيم) يفيد أمرين .

(أحدهما) تعظيم الله لنبيه ، حيث ناداه بوصف النبوة،وقد نبهنا على هذا فيما سبق .

(١) دافع الله عنهم أيضاً فى سورة البقرة كما سبق التنبيه عليه .

(ثانيهما) عتابه على تحريم ما أحل له ، ليرضى أزواجه . وهذا يشعر بعناية الله بنبيه ، بحيث لا يحب له أن يضيق على نفسه ، فى سبيل إرضاء أى شخص، فكأنه يقول : لا تضيق على نفسك بتحريم سريتك ، لترضى أزواجك ، بل هن أحق أن يسعين فى رضاك ، ليسعدن ، وانظر ما تقدم فى سورة طه .

قوله تعالى (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) يؤيد ما ذكرناه آنفاً ، حيث إن الله تعالى يقول لحفصة وعائشة : إن تتوبا إلى الله فقد مالت قلوبكما لتحريم مارية ، وسركما ذلك ، مع كراهة النبي له ، وذلك ذنب يستوجب التوبة .

وقوله تعالى (وإن تظاهرا عليه فإن الله هـــو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير) يؤيد أيضاً ما تقدم . ويدل على أن عناية الله بنبيه لم يرق إليها رسول ولا ملك . فما نعلم أن الله تعـالى نصر رسولا على أعدائه بهذه الصورة الرائعة التى وعد بها رسوله فى هذه الحادثة ، ولقد كان فى نصر الله كفاية وغناء . لـكنه سبحانه أراد أن يظهر مقدار حبه لنبيه ، ورعايته لجانبه ، فجند لنصره جبريل وصالح المؤمنين والملائـكة ! فهذه الآية دليل كافى على أن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل المخلوقات ، وأحبهم إلى الله على الإطلاق .

٤٨ — سورة القـــلم

قوله تعالى (نۤ والقلم وما يسطرون) إقسام من الله تعالى بالقلم وما يكتب به ، على ما يأتى (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) هذا أول الأشياء المقسم عليها ، وهو نفى الجنون الذى زعمه المشركون ، وزيدت الباء فى بمجنون ، لتأكيد النفى .

والثانى (وإن لك لأجراً غير ممنون) أى غير مقطوع . لأنه ما من عمل خير يعمله أفراد أمته من الثقلين ، منذ بعثته إلى يوم القيامة ، إلا وله عليه أجر الهداية والتعليم . نقل القسطلانى فى المواهب اللدنية ، عن الإمام الشافعى ، قال : ما من عمل يعمله أحد من أمة النبى صلى الله عليه وسلم ، إلا والنبى أصل فيه . قال فى تحقيق النصرة : فجميع حسنات المؤمنين ، وأعمالهم الصالحة ، فى صحائف نبينا صلى الله عليه وسلم . زيادة على

ماله من الأجر ، مع مضاعفة لا يحصرها إلا الله تعالى . لأن كل عامل ومهتد إلى يوم القيامة ، يحصل له أجـــره ، ويتجدد لشيخه مثل ذلك الأجر . ولشيخ شيخه مثلاه ، وللشيخ الثالث أربعة ، وللرابع ثمانية ، وهكذا تضاعف كل مرتبة ، بعدد الأجور الحاصلة بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، وبهذا يعرف تفضيل السلف على الخلف . فإذا فرضت المراتب عشرة ، بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، كان له عليه الصلاة والسلام من الأجر ألف وأربعة وعشرون . فإذا اهتدى بالعاشر حادى عشر ، صار أجر النبي صلى الله عليه وسلم ألفين وثمانية وأربعين .

وهكذا كلما زاد واحد ، يتضاعف ما كان قبله أبداً ، كما قال بعض المحققين . قلت : وبيان ذلك بالتفصيل أن الشيخ الأول له أجر على التعليم ، وللشيخ الثانى أجران ، وللثالث أربعة ، وللرابع ثمانية ، وللخامس ستة عشر ، والسادس اثنان وثلاثون ، وللسابع أربعة وستون ، وللثامن ثمانية وعشرون ومائة ، وللتاسع ـ وهو التابعى ـ ستة وخمسون ومائتان ، وللعاشر ـ وهو الصحابى ـ اثنا عشر وخمسمائة ، وللنبى صلى الله عليه وسلم أربعة وعشرون وألف [1] . يضاف إلى هذا ما يناله من أجر عظيم ، بصلاة الله عليه وملائكته والمؤمنين .

والثالث (وإنك لعلى خلق عظيم) وهذا أعظم مدح له عليه الصلاة والسلام، حيث إن الله تعالى أثنى عليه بعظمة خلقه ، مؤكداً هذا الثناء بالقسم ، وإن . واللام ، وكون خبرها مجرورا بعلى المفيدة تمكنه من هذا الخلق العظيم ، واستقراره عليه . وناهيك بخلق يشهد الله تعالى بعظمته ! ولله در القائل :

أيا مصطفى من قبل نشأة آدمٍ   والكون لم تفتح له الأغلاق
أيروم مخلوق ثناءك بعدما   أثنى على أخلاقك الخلاق ؟ !

---

(١) وأيضاً ما من معصية تقع ، إلا وله صلى الله عليه وسلم ثواب النهى عنها ، والتحذير منها . لقوله صلى الله عليه وسلم (ما من عمل يقربكم إلى الجنة إلا وقد أمرتكم به ، وما من عمل يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه) الحديث رواه الحاكم من حديث ابن مسعود وصححه .

٤٩ — سورة الحاقة

قال تعالى (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون) أقسم الله بالأشياء كلها الخلق والخالق ، النعم الظاهرة والباطنة ، الأجسام والأرواح ، الإنس والجن ، الغيب والشهادة ، الدنيا والآخرة (إنه) أى القرآن (لقول رسول كريم) هو النبي صلى الله عليه وسلم ، يقوله على وجه الرسالة من عند الله .

وفى هذا دفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وثناء عليه . وقيل : الرسول الكريم هو جبريل عليه السلام .

قال الزمخشرى : وقوله : (وما هو بقول شاعر . ولا بقول كاهن) دليل على أنه محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن المعنى على إثبات أنه رسول ، لا شاعر ولا كاهن . قلت : وقوله (تنزيل من رب العالمين) دليل على ذلك أيضاً (١).

٥٠ — سورة الجن

تشتمل على الإخبار بسماع الجن للقرآن ، ومدحهم له ، وإيمانهم به . وأنهم اجتمعوا على النبي صلى الله عليه وسلم ، ليسمعوا منه الدعوة ، وازدحموا حتى ركب بعضهم فوق بعض . وهذا يقتضى أنهم كانوا كثيرين ، وقد قيل : كانوا اثنى عشر ألفاً ، وقيل : سبعين ألفاً . فالعجب من بعض المبتدعة ، حيث زعم فى حديث له بالمذياع : أنه لا يوجد دليل قطعى على إرسال النبي صلى الله عليه وسلم إلى الجن !!! وكيف غفل عن هذه السورة

---

(١) وقد دفع الله عن نبيه هذا الاتهام أيضاً فى سورة الطور ، فقال تعالى (فذكر فما أنت بنعمة ربك) بسبب إنعامه عليك بالنبوة وكمال العقل وعلو الهمة والعصمة (بكاهن ولا مجنون) أى لست كاهناً ولا مجنونا . ولكنك نبى معصوم مؤيد بالوحى (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) حوادث الدهر فيهلك كما هلك غيره من الشعراء (قل تربصوا) هلاكى (فإنى معكم من المتربصين) هلاككم وقد أهلكهم الله يوم بدر . والمقصود أن التهمة التى نفاها الله عن نبيه فى الموضعين واحدة .

وسورتى الرحمان والأحقاف ؟ ! وكيف فاته أن الله أمر نبيه أن يتحدى بالقرآن الإنس والجن ؟ ! ولو لم يكن رسولا إليهم ، لكان ذكرهم فى التحدى عبثا لأن من المقطوع به أن الرسول يتحدى قومه خاصة ، كما هو ثابت فى قصة صالح وموسى وغيرهم مما سجله القرآن الكريم . وقد رددت عليه برسالة سميتها (قرة العين بأدلة إرسال النبى إلى الثقلين) أوردت فيها خمسة وعشرين دليلا من الكتاب والسنة والإجماع ، وذكرت بعض الصحابة من الجن ، وخرجت بعض ما رووه من الأحاديث . ومنكر إرساله عليه الصلاة والسلام إلى الجن ، كافر بلا نزاع .

قوله تعالى (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديداً وشهباً . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً) يفيد اعتراف الجن المؤمنين بأنهم كانوا يسترقون السمع قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنهم منعوا بعدها من استراق السمع . بالشهب المحرقة ، والحرس الشديد من الملائكة . لأنه عليه الصلاة والسلام ، بعث لإبطال الكهانة والتنجيم وغيرهما مما كان يعتقده العرب وغيرهم . وجاء لتنوير العقول ، وهداية القلوب ، فأيده الله بالملائكة والشهب ، وغيرهما مما لم يعطه لنبى قبله .

٥١ — سورة المزمل

نادى الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بهذا الوصف[1] (تسجيلا لحالته التى كان عليها حين رجع إلى خديجة رضى الله عنها ، بعد أن نزل عليه فى غار حراء ، أول آية نزلت من القرآن (اقرأ باسم ربك) الآية ، وفؤاده يرجف . وقال (زملونى لقد خشيت على نفسى) فقالت له خديجة رضى الله عنها : كلا والله لا يخزيك الله أبداً . إنك لتصل الرحم ، وتقرى الضيف ، وتحمل الكل ، وتعين على نوائب الحق . وقال عكرمة : معناه يا أيها الذى زمل أمراً عظيماً ، أى حمله . ومن الحكمة فى ندائه بهذا الوصف - إلى جانب ما ذكر - تأنيسه ، وإزالة ما علق بقلبه من هيبة الوحى ، وفى هذا من لطف الله ، به ، ورعاية جانبه ، ما لا يخفى .

(١) ذكر الزمخشرى هنا كلاما يخالف سبب النزول، ويدل على سوء أدب فى حق الجناب =

٥٢ — سورة المدثر

فتر الوحى نحو ثلاث سنوات ، كان النبى صلى الله عليه وسلم خلالها ، يعلو شواهق الجبال حزيناً مهموماً[1] ، فنودى ـ وهو بغار حراء ـ : يا محمد أنت رسول الله حقاً ، وأنا جبريل . فرفع رأسه فإذا جبريل قاعد على عرش بين السماء والأرض . فرعب . ورجع إلى خديجة رضى الله عنها ، وقال (دثرونى) فأنزل الله تعالى (يا أيها المدثر قم فأنذر) الآية ، ويقال هنا : ما قيل فى يا أيها المزمل ، وفى الوضعين إشارة إلى أنه عليه الصلاة والسلام ، تزمل بالنبوة ، وتدثر بالرسالة .

٥٣ — سورة القيامة

كان النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن قبل فراغ جبريل من إلقائه ، حرصاً على حفظه ، وعدم نسيانه . فأنزل الله تعالى (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه) وهذا يفيد أن الله تعالى لا يحب لنبيه أن يجهد نفسه بقراءة ما يلقيه عليه جبريل ، فتجتمع عليه مشقة التلاوة ، ومشقة تلقى الوحى فأمره باستماع ما يلقى إليه . وتكفل سبحانه بجمعه له فى صدره ، وتحفيظه إياه .

=النبوى الكريم . وقلده فيه البيضاوى من غير تبصر ، ورد عليه العلامة ابن المنير ، فأجاب .

(١) جاء فى بعض الروايات : أنه كان عليه الصلاة والسلام يعلو شواهق الجبال يريد أن يلقى نفسه ، ويرجع حين يظهر له جبريل عليه السلام . وهذه رواية وقعت فى البخارى مرسلة ، فهى ضعيفة . وعلى فرض صحتها ، فهمه صلى الله عليه وسلم بالانتحار ، لا يعيبه لوجوه :

أحدها : أن الهم بالمعصية لا ينافى العصمة ، وقدهم يوسف عليه السلام بقربان امرأة العزيز لكن لم يقربها لعصمته .

ثانيها : أن الانتحار لم يكن محرماً فى ذلك الوقت ، وإنما نزل تحريمه بعد ذلك فى المدينة ، بقوله تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم) .

ثالثها : أن قتل الإنسان نفسه ، شرع لبنى إسرائيل فى توبتهم من عبادة العجل . قال الله تعالى (وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم) .

٥٤ — سورة عبس

كان النبي صلى الله عليه وسلم جالسا مع زعماء من قريش يدعوهم إلى الإسلام ، ورجاء أن يسلم بإسلامهم أتباعهم ، فيتأيد الإسلام ويقوى . فدخل عليه عبد الله ابن أم مكتوم الضرير ، وقال : أقرئني وعلمني مما علمك الله . وكرر الطلب ، فكره النبي صلى الله عليه وسلم كلامه ، لأنه قطع حديثه ، وشغله عما كان يرجوه من إسلام أولئك الزعماء وابن أم مكتوم سمع كلامه معهم، وعرف اشتغاله بهم. فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيته ، ولم يعلمه عقابا له على سلوكه . فأنزل الله تعالى (عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى) الآية . وأتى بضمير الغيبة ، تلطفا بنبيه ، وإجلالا له . وهذا يقتضي أن الله تعالى يعاتبه عتاب محبة ووداد ، ويفهمه أن تجاوزه عن سلوك الأعمى وتعليمه ، أولى من إتعاب نفسه مع أولئك الزعماء الذين أيأسه من إسلامهم فى آية نزلت بعد هذه . فما أكرمه من خطاب ! ! وما أجله من عتاب !! يتوجهان من المولى إلى سيد المقربين الأحباب ! وفى الآية تأويل آخر ، قرأته لبعض المعاصرين . وحاصله مع توضيح وتتميم : أن جملة (عبس وتولى أن جاءه الأعمى) حكاية لقول الكفار عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم وجهوا الخطاب إليه على سبيل الاستهزاء (وما يدرك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى) يقصدون أنفسهم (فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى . وأما من جاء يسعى وهو يخشى) يقصدون الأعمى (فأنت عنه تلهى) إلى هنا انتهى كلامهم . قال الله تعالى يرد عليهم (كلا) لا تقولوا ذلك ، فمحمد لا يقبل على شخص لأجل غناه ، ولا يعرض عن آخر لأجل فقره أو عماه . وهو تأويل حسن جيد ، يؤيده سياق الآية ، فإن قوله تعالى (عبس وتولى أن جاءه الأعمى) يناسب أن يكون من كلام الكفار ، قالوه تعييبا للنبي صلى الله عليه وسلم ، بما هو خلاف الواقع ، لأنه لم يعبس لأجل مجيء الأعمى ، ولكن لأجل قطع حديثه مع القوم . وقوله تعالى (وما يدريك لعله يزكى) يناسب أن يكون من كلامهم أيضاً ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان يدرى أن ابن أم مكتوم تزكى بالإيمان . وأنه يتذكر بما يسمعه من القرآن . إذ هو رضي الله عنه من قدماء المسلمين ،

وابن خالة خديجة رضى الله عنها أم المؤمنين . والقرآن يستعمل عبارة (وما يدريك .. ولعل) فيما لا يدرى . نحو (وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً . . وما يدريك لعل الساعة قريب) والحديث الوارد فى قصة ابن أم مكتوم ، ضعيف . رواه الترمذى عن عائشة ، وقال : حديث غريب . والآيات على هذا ، من دفاع الله عن نبيه .

٥٥ — سورة التكوير

كان المشركون يعرفون النبي صـــلى الله عليه وسلم ـ منذ نشأته بينهم ـ بالصدق والأمانة والوفاء ومكارم الأخلاق . لا ينكرون ذلك ، ولا يحاولون إنكاره . فلما أكرمه الله بالرسالة ، حسدوه ، واستنكفوا أن يتبعوه وقالوا : إنما يعلمه بشر ، ورموه بالجنون هذا وهم يعلمون أنهم فيما أبدوه من الاتهام . مخالفون لما يعرفون من أخلاقه صلى الله عليه وسلم وصفاته . فأنزل الله تعالى (فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين) وهذا رد لقولهم : يعلمه بشر ، حيث أثبت أن القرآن نزل به جبريل عليه السلام ، وأطنب فى مدحه ، ليبين لهم أن السفير بينهما عظيم الصفات . كما أن النبي صلى الله عليه وسلم عظيم الصفات باعترافهم أنفسهم .

وقوله تعالى (وما صاحبكم بمجنون) نفى لتهمة الجنون ، وعبر بصاحبكم ، تنبيها إلى أنهم ـ فى اتهامهم له ـ مخالفون لما عرفوه عنه من رجاحة العقل . وهذا مثل قوله تعالى (أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين) وقوله سبحانه (قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد) قوله تعالى (ولقد رآه بالأفق المبين) تأكيد لنفى الجنون عنه . إذ تفيد هذه الجملة إقسام الله تعالى على أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى السفير الذى يأتيه بالوحى ، رؤية حقيقية ليست عن جنون أطاف به ، ولا عن نوبة إغماء أصابته . فهذه الآيات ـ كما ترى ـ أتت لنفى تهمتين . رددهما الكفار مرات . ولم تأت للمفاضلة بين النبي صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام، وقد وهم الزمخشرى

حيث فهم منها أفضلية جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم. فشذ بهذا الفهم عن الإجماع [1] وغفل عن الدلائل التي تقتضي أفضليته عليه الصلاة والسلام، على جبريل وغيره، كإقسام الله بحياته، وصلاته عليه، وإنذار الملائكة في كتابه، وندائه بوصف التعظيم إلى غير ذلك مما تراه في مواضعه من هذا الكتاب. ولو لم تكن إلا آية النصرة في سورة التحريم، لكان فيها الكفاية.

٥٦ — سورة البروج

أخرج البزار بإسناد رجاله ثقات عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: (وشاهد ومشهود) قال: الشاهد محمد صلى الله عليه وسلم والمشهود يوم القيامة. فذلك قوله تعالى (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً). وتنكير شاهد ومشهود، للإبهام في الوصف، كأنه قيل: وشاهد ومشهود لا يكتنه وصفهما، قاله الزمخشري في الكشاف، وفي هذا من التنويه بنبينا صلى الله عليه وسلم، ما لا يخفى.

---

(١) وقوله تعالى (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك) لا يدل على أفضلية الملائكة على النبي صلى الله عليه وسلم. لأنه قصد به الرد على المشركين الذين طلبوا منه مطالب على سبيل التعنت. حيث قالوا له: إن كنت رسولا فنريد أن توسع علينا، وتكثر أرزاقنا. وقالوا أيضاً: أخبرنا بما يحصل لنا في المستقبل، حتى نتهيأ له، ونجتنب ما يمكن اجتنابه مما يضرنا. وقالوا أيضاً: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويتزوج؟ فجاءت الآية رداً لهذه الأقاويل على هذا الترتيب. ردت قولهم الأول، بقوله: لا أقول لكم عندي خزائن الله التي يرزق منها عباده، حتى أستطيع أن أوسع عليكم وأكثر أرزاقكم. وردت قولهم الثاني، بقوله: ولا أعلم الغيب، فأخبركم بالمستقبل الذي لا يعلمه إلا الله. وردت الثالث، بقوله: ولا أقول لكم إني ملك، حتى تنكروا مني الأكل والمشي في الأسواق، وتزوج النساء. وذيلت هذه الردود بقوله (إن أتبع إلا ما يوحى إلي) أي ما أنا إلا رسول بشر أتبع ما يوحى إلي. فأبلغكم إياه، وهو توحيد الله وعبادته، فلا صلة للآية بالمفاضلة.

٥٧ — سورة البـــلد

قوله تعالى (لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد) يفيد إحلال مكة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك يوم فتحها . حيث أمر بقتل عبد الله بن خطل ، وهو متعلق بأستار الكعبة ، لأنه كان يكتب الوحى ، ثم ارتد ، وطعن فى القرآن ، وفى النبي صلى الله عليه وسلم . وإحلال مكة المكرمة من خصوصياته عليه الصلاة والسلام ، ولم تحل لنبي قبله .

وقيل فى معنى (وأنت حل بهذا البلد) : مقيم به ، نازل فيه . فكأنه تعالى عظم حرمة مكة ، من أجل أنه صلى الله عليه وسلم مقيم بها . وقيل : معنى (وأنت حل بهذا البلد) ومن المكابدة والمشقة أن مثلك على عظم حرمتك يستحل بهذا البلد ، كما يستحل الصيد فى غير الحرم . عن شرحبيل ، قال : يحرمون أن يقتلوا بها صيداً ، ويستحلون إخراجك وقتلك . وفيه ـ على هذا ـ تثبيت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة ، وتعجيب من حالهم فى عداوته صلى الله عليه وسلم .

والمراد بقوله (ووالد وما ولد) رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ولده ، أقسم ببلده الذى هو مسقط رأسه ، وحرم أبيه إبراهيم ، ومنشأ أبيه إسماعيل . وبمن ولده ، وبه . والتنكير للمدح والتعظيم . وإيثار ما على من ، لإفادة معنى التعجب ، كما فى (والله أعلم بما وضعت) قاله الزمخشرى .

٥٨ — سورة الضحى

اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم أياماً لم يقم فيها لصلاته ، فقالت له أم جميل امرأة أبي لهب . يا محمد إنى لأرجو أن يكون شيطانك قد قلاك ، لم أره قربك منذ كذا . فنزل قوله تعالى (والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى) أقسم سبحانه على أنه ما ترك نبيه وما أبغضه . وهذا من كمال عنايته فى رد ماقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى (وللآخرة خير لك من الأولى) يفيد ما أعد الله له فى الآخرة من

الكرامات والعطايا ، ويفيد بدلالة الإشارة أنه صلى الله عليه وسلم يترقى دائما ، لأن اللحظة الآخرة خير له من الأولى . قال الزمخشرى : فإن قلت : كيف اتصل قوله (وللآخرة خير لك من الأولى) بما قبله ؟ قلت : لما كان فى ضمن نفى التوديع والقلى ، أن الله مواصلك بالوحى إليك ، وأنك حبيب الله ، ولا ترى كرامة أعظم من ذلك ، ولا نعمة أجل منه . أخبره أن حاله فى الآخرة أعظم من ذلك وأجل ، وهو السبق والتقدم على جميع أنبياء الله ورسله ، وشهادة أمته على سائر الأمم ، ورفع درجات المؤمنين ، وإعلاء مراتبهم بشفاعته ، وغير ذلك [1] من الكرامات السنية .

قوله تعالى (ولسوف يعطيك ربك فترضى) وعد من الله تعالى بأن يعطيه فيرضيه وحذف مفعول يعطيك ، ليعم أنواع العطاء ، من الكمالات النفسانية ، والعلوم الإلهية ، وظهور الأمر ، وإعلاء الدين ، والنصر على الأعداء ، والشفاعة ، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا معطيه سبحانه وتعالى [2] .

قوله تعالى (ووجدك ضالا فهدى) معنى الضلال هنا عدم المعرفة ، يقال : ضللت الدار ، أى لم أعرفها . والمعنى : أنه لم يكن يعرف الشريعة ، فهداه الله إليها بالوحى . وهذا كقوله تعالى (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان) أى ما كنت تدرى القرآن ، ولا شرائع الإيمان .

---

(١) مثل شفاعته للعصاة من أمته فى عدم دخول بعضهم النار . وفى إخراج بعضهم الآخر منها . الزمخشرى لا يقول بهاتين الشفاعتين ، لأنه معتزلى . وأهل السنة مجمعون على إثباتهما ، ودلائل الكتاب والسنة المتواترة تؤيدهم .

(٢) وقال الزمخشرى : موعد شامل لما أعطاه فى الدنيا من الفتح والظفر بأعدائه يوم بدر ، ويوم فتح مكة ، ودخول الناس فى دين الله أفواجاً . والغلبة على قريظة والنضير وإجلائهم ، وبث عساكره وسراياه فى بلاد العرب . وما فتح على خلفائه الراشدين فى أقطار الأرض من المدائن ، وهدم بأيديهم من ممالك الجبابرة ، وأنهبهم من كنوز الأكاسرة ، وما قذف فى قلوب أهل الشرق والغرب من الرعب ، وتهييب الإسلام ، وفشو الدعوة ، واستيلاء المسلمين . ولما ادخر له من الثواب الذى لا يعلم كنهه إلا الله اهـ .

قوله سبحانه (وأما بنعمة ربك فحدث) أمر له عليه الصلاة والسلام أن يحدث أمته بما أنعم الله عليه ، ليعرفوه ويعتقدوه . ويزدادوا حباً له وتعظيماً . فالتحدث بالنعمة فى حقه واجب ، وفى حق غيره من أفراد الأمة جائز ، إذا أمن العجب والرياء .

٥٩ — سورة ألم نشرح

قوله تعالى (ألم نشرح لك صدرك) يفيد أن الله تعالى شرح صدر نبيه صلى الله عليه وسلم بنوره الإلهى ، ليسع مناجاة الحق ، ودعوة الخلق . وليكون مهبط الرحمات وموضع التجليات . قال الزمخشرى : معنى شرحنا لك صدرك : فتحناه حتى وسع هموم النبوة ، ودعوة الثقلين جميعاً . قوله تعالى (ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك) المراد بالوزر عبء التبليغ ، و ثقل الدعوة . كان الاهتمام بهما ، يقض مضجعه ، حتى سهلهما الله تعالى عليه ، وبسرهما له . فإطلاق الوزر من باب الاستعارة التصريحية ، كما هو معلوم . وفى قراءة ابن مسعود : وحللنا عنك وقرك . والوقر الحمل ، وهذه القراءة تؤيد ما قررناه .

قوله تعالى (ورفعنا لك ذكرك) يفيد أن الله تعالى رفع ذكر نبيه صلى الله عليه وسلم ، فبشر به فى الكتب السابقة ، وأخذ عهداً على الأنبياء أن يؤمنوا به ، وينصروه إن ظهر فى زمانهم ، وقرن اسمه باسمه تعالى فى الأذان والإقامة والتشهد فى الصلاة ، وفى خطب الجمعة والعيدين وفى خطبة النكاح ، وفى الشهادة التى لا يكون الشخص مسلماً إلا إذا نطق بها ، وجعل الصلاة عليه عبادة فرضها على المسلمين .

(تنبيه) قال العلامة الصاوى : لو أن رجلا عبد الله تعالى ، وصدق بالجنة والنار وكل شىء ، ولم يشهد أن محمداً رسول الله ، لم ينتفع بشىء ، وكان كافراً . وهذا إجماع ، وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة (والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار [1]) .

---

(١) هذا الحديث يفيد أن عقاب الآخرة موقوف على بلوغ الدعوة . وقد بينا فى (خواطر

٦٠ — سورة البينة

كان الكفار من أهل الكتاب وعبدة الأصنام يقولون ـ قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ـ : لا نترك ما نحن عليه من ديننا حتى يبعث النبي الموعود الذى هو مكتوب فى التوراة والإنجيل . فلما بعث صلى الله عليه وسلم ، حسدوه وأنكروه وتفرقوا عنه . فحكى الله عنهم ما كانوا يقولونه (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين[١]) عما هم عليه (حتى تأتيهم البينة) الحجة الواضحة ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم (رسول) بدل من البينة (يتلو صحفا مطهرة) من الباطل (فيها كتب قيمة) فيها أحكام مكتوبة مستقيمة ناطقة بالحق والعدل (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة) وهذا كقوله تعالى (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به) ومن قال : إن المراد برسول هنا جبريل عليه السلام فقد أخطأ خطأ كبيراً ، لأن جبريل لم يتل عليهم صحفاً ولا غيرها ، ولأنه أيضاً لم يكن موصوفاً لهم فى التوراة والإنجيل باسمه ونسبه وبلده ومهاجره .

دينية) أن إبلاغ الدعوة واجب يقوم به كل مسلم فى حدود طاقته . لكن يقع معظمه على عاتق الحكام والعلماء والأغنياء . فهم المسئولون قبل كل أحد عن تأليف جماعات وإمدادها بما يلزم التبشير بالإسلام ، فى جميع بقاع العالم . وإن مشكلة الملونين فى أمريكا وجنوب إفريقيا ، ومشكلة المنبوذين فى الهند ، لا تجد الحل العادل السليم إلا فى الإسلام ، دين الأخـــوة والمساواة والسلام العام .

(١) تأمل هذه الآية ، تجدها سلكت أهل الكتاب والمشركين فى نظام ، ووسمتهم جميعاً بسمة الكفر . لأن أهل الكتاب اتفقوا على الكفر بالنبي صلى الله عليه وسلم ، واليهود كفروا أيضاً بعيسى ، والنصارى ألهوه . وبعض الناس يعتقد أن الكافر هو الذى ينكر وجود الله تعالى وهذا الاعتقاد خطأ ، والصواب — لغة وشرعاً — أن الكافر يطلق على الأصناف المذكورة كلها ، لأن المشرك كفر بوحدانية الله ، وأهل الكتاب كفروا برسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنكر الله كفر بوجوده ، واسمه الخاص به : ملحد .

٦١ — سورة الكوثر

قوله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) يفيد تشريف النبي صلى الله عليه وسلم بهذا العطاء الذى أكد بإن ، وبنون العظمة . والكوثر نهر فى الجنة كما ثبت به الحديث فى صحيح مسلم . وهو من خصوصياته صلى الله عليه وسلم . وقيل فى معنى الكوثر أقوال كثيرة ، تركناها لأمرين .

١ — أنا لا نعدل بالحديث الصحيح غيره .

٢ — أن تلك الأقوال متداخلة ، ولا تفيد فائدة جديدة ، وأقربها إلى الإفادة ، قول من قال : الكوثر الخير الكثير ، وهو قول ابن عباس .

قوله تعالى (إن شانئك هو الأبتر) رد لقول المشركين فى النبي صلى الله عليه وسلم - حين مات ولده القاسم - : بتر محمد . ولذا جاء مؤكداً بإن ، وضمير الفصل ، وتعريف الأبتر . وذلك يفيد حصر البتر فى شانئه أى مبغضه عليه الصلاة والسلام . وهذه السورة نزلت لتسليته صلى الله عليه وسلم ، وبيان ماله عند مولاه من المنزلة التى ليس فوقها منزلة .

وقال الزمخشرى فى تفسير هذه السورة - بعد حكاية الخلاف فى معنى الكوثر والصلاة والنحر - : والمعنى أعطيت ما لا غاية لكثرته من خير الدارين الذى لم يعطه أحد غيرك ، ومعطى ذلك كله أنا إله العالمين ، فاجتمعت لك الغبطتان السنيتان : إصابة أشرف عطاء وأوفره ، من أكرم معط ، وأعظم منعم . فاعبد ربك الذى أعزك بإعطائه وشرفك وصانك من منن الخلق ، مراغما لقومك الذين يعبدون غير الله . وانحر لوجهه وباسمه إذا نحرت ، مخالفا لهم فى النحر للأوثان . إن من أبغضك من قومك لمخالفتك لهم هو الأبتر ، لا أنت . لأن كل من يولد إلى يوم القيامة من المؤمنين ، فهم أولادك وأعقابك . وذكرك مرفوع على المنابر والمنار ، وعلى لسان كل عالم وذاكر إلى آخر الدهر : يبدأ بذكر الله ، ويثنى بذكرك . ولك فى الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف ، فمثلك لا يقال له أبتر ، وإنما الأبتر هو شانئك المنسى فى الدنيا والآخرة ، وإن ذكر ، ذكر باللعن .

٦٢ — سورة النصر

بشر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم فى هذه السورة بنصره على أعدائه ، وفتح مكة له . وأمره بالتسبيح والاستغفار [١] ، استعداداً للقاء مولاه ، وتهيؤا لما أعد له من أنواع الكرامات عنده سبحانه وتعالى .

٦٣ — سورة تبت

لما نزل قوله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) خرج النبى صلى الله عليه وسلم إلى البيت ونادى بطون قريش ، فاجتمعوا له . فأنذرهم عذاب الله ، وحذرهم عقابه . فقال له عمه أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله تعالى هذه السورة ، يخبر بهلاكه وهلاك زوجه . ولم يفرد الله سورة لذم أحد بالتعيين سواهما ، وذلك لشدة عداوتهما للنبى صلى الله عليه وسلم ، وكثرة إيذائهما له [٢] .

---

(١) يؤخذ من هنا فضل التسبيح والتحميد والاستغفار ، حيث أمر الله به فى مقابلة شكر نعمة الفتح والنصر . كما يؤخذ أيضاً أن من حكم الاستغفار أن يكون شكراً على نعمة ، فتضاف هذه الحكمة إلى حكمه التى بيناها فى سورة النساء .

(٢) يجتنب كثير من الناس هذه السورة فى الصلاة ، معتقدين كراهة قراءتها ، لأنها تذم عم النبى صلى الله عليه وسلم . وهذا شىء لا أصل له ، والنبى صلى الله عليه وسلم لا يضيره ذم عم كان أكفر قريش بالله ، وأشدهم عداوة لرسوله ويعجبنى فى هذا المقام صنيع الزمخشرى — حين تكلم على (حمالة الحطب) وحكى القراءتين برفع حمالة ونصبه ، ووجه القراءة الثانية بأن النصب على الشتم — فإنه قال : وأنا أستحب هذه القراءة ، وقد توسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بجميل ، من أحب شتم أم جميل . اهـ . وكذلك أقول : قد توسل إلى النبى صلى الله عليه وسلم بسبب ، من أحب ذم أبى لهب .

٦٤ و ٦٥ — سورتا المعوذتين

لجأ اليهود إلى السحر[1] آخر حيلة لهم فى محاربة النبى صلى الله عليه وسلم ، فسحره لبيد بن الأعصم اليهودى ، ليعقده عن زوجاته . وذلك يؤدى فى نظرهم إلى إتعاب النبى صلى الله عليه وسلم فى بيته ، وإسقاطه فى نظر نسائه ، وربما يطلبن الطلاق من رجل لا يقوم بالوظيفة الزوجية . وظل صلى الله عليه وسلم معقوداً عن أهله ، وهو فى تمام صحته ، لا يدرى ماذا جرى له ؟ حتى نزلت هاتان السورتان ، وأخبره جبريل عليه السلام بما حصل له . فقرأهما وحل عقد السحر المعمول له ، وعاد إلى سابق نشاطه فى

---

(١) السحر نوعان :

نوع يتسلط على قلب الشخص أو عقله ، فيورث عنده وسوسة أو خبلا . فيتخيل أموراً لا وجود لها ، ويعتقد أشياء لا حقيقة لها . وهذا النوع مستحيل فى حق الأنبياء عليهم السلام، لقيام الدليل العقلى القاطع على عصمتهم من تسلط شيء على قلوبهم أو عقولهم .

ونوع يتسلط على بدن الشخص فقط ، مثل ربطه عن زوجه ، فلا يقدر على إتيانها مع تمام صحته . وهذا النوع جائز فى حق الأنبياء ، لأنه من الأمراض البدنية التى لا تمس مكانتهم ، ولا تنقص قدرهم . وهذا هو الذى حصل للنبى صلى الله عليه وسلم . فقد ثبت فى رواية للبخارى فى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها : أنه صلى الله عليه وسلم كان يرى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن ومعنى كلامها : أنه عليه الصلاة والسلام كان يرى أن له قدرة على إتيان النساء ، كسابق عادته . ولكنه إذا أراد المباشرة ، لا يأتيهن لعدم القدرة عليه . فهو مرض بدنى لا علاقة له بالقلب ، ولا بالعقل . وهـــذا مثل الحمى ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يمرض بها ، لكنه معصوم من خطرفتها وهذرها ، فكان تسلطها مقصوراً على بدنه . والمشركون حين قالوا عن النبى صلى الله عليه وسلم (إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً) قصدوا النوع الأول . يريدون أنه مغلوب على عقله ، يتخيل أنه يوحى إليه ، وأنه رسول . . إلخ وهذا كما قالوا عنه : ساحر وشاعر وكاهن . ولهذا رد الله كلامهم فقال لنبيه (انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) إلى الحق الذى ضلوا عنه : ونظير هذا قول فرعون فى موسى (إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) .

قربان أهله ، وتم نصر الله تعالى له ظاهراً وباطنا ، ورفع منزلته حسا ومعنى . فلم يكن أفضل منه عند مولاه رسول ولا ملك ، ولم يكن أقرب منه كليم ولا خليل . صلى الله عليه وسلم كلما ذكره الذاكرون ، وغفل عن ذكره الغافلون .

﴿ خاتمـــة ﴾

بعد الانتهاء من ذكر الآيات الواردة فى فضل النبى صلى الله عليه وسلم وتكريمه ، نلخص منها فى هذه الخاتمة المزايا أى الخصائص التى اقتضت أفضليته على الأنبياء والمرسلين والملائكة ، لأنها لم تجتمع لأحد سواه . وهى نوعان : نوع يتعلق بشخصه . ونوع يتعلق بأمته ، أو ببعض أفرادها لأجله عليه الصلاة والسلام . فمن النوع الأول : دفاع الله عنه بمختلف الأساليب ، حسبما نبهنا عليه فيما مر . تبشير الأنبياء به . أخذ الميثاق عليهم أن يؤمنوا به وينصروه . إعطاؤه أمنيته قبل السؤال . قتال الملائكة معه . نصره بالرعب يلقى فى قلوب أعدائه . إيجاب طاعته ، وجعلها مثل طاعة الله . طلب الله منه أن يعفو عن أصحابه ويستغفر لهم . اتباعه سبب فى محبة الله تعالى وغفرانه . تسليته عن تكذيب الكفار له . الطعن فيه طعن فى الدين . نفى الإيمان عمن لم يسلم لحكمه تسليما . تنبيه الله له على الخطأ قبل الوقوع فيه ، ومن ثم كان لا يخطىء ، حتى فيما يهم به . شهادة الله له بالتبليغ . نداؤه وذكره بوصف النبوة والرسالة . وجوده منع الخسف والمسخ والقذف . وصفه باسمين من أسماء الله تعالى ، بل بأكثر[1] إيتاؤه القرآن العظيم . حفظ الله له من التبديل والتحريف . إقسام الله بحياته[2] . كفايته

(١) ووصف خليله باسم واحد قال تعالى (إن إبراهيم لأواه حليم) ووصف به إسماعيل أيضاً (فبشرناه بغلام حليم) كذلك وصف كليمه باسم واحد (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم) ووصف نوحاً باسم واحد أيضاً (إنه كان عبداً شكوراً) ووصف إسحاق باسم واحد أيضاً (وبشروه بغلام عليم) .

هذا آخر التعليقات والحمد لله رب العالمين .

المستهزئين به . إسناد بيان القرآن إليه . إعطاؤه المقام المحمود . إعجاز القرآن للثقلين عتابه لجبريل واعتذار الملائكة فى كتابه الذى هو القرآن . تحريم ندائه باسمه أو كنيته إرساله رحمة للعالمين . يسر دينه . عموم رسالته . وجوب إيثاره بالنفس . ختمه للنبوة زواجه بالهبة ، وبدون صداق ، عدم وجوب القسم عليه بين نسائه . حرمة إيذائه ولو بمباح . صلاة الله وملائكته عليه . أمر المؤمنين بالصلاة عليه . حرمة التقدم بين يديه بقول أو فعل . حرمة رفع الصوت فوق صوته . حرمة الجهر له بالقول فى الكلام معه . تزكية الله له جملة وتفصيلا . كل ما يصدر عنه ، بإذن الله ورضاه . تجنيد الله لنصرته على زوجيه جبريل وصالح المؤمنين والملائكة . ثناء الله عليه بعظمة خلقه . أجره على التبليغ مستمر لا ينقطع . إحلال مكة له عام الفتح . دوام ترقيه . شرح صدره ، لتلقى التجليات . رفع ذكره . إعطاؤه الكوثر . إلى غير ذلك .

ومن النوع الثانى : دفاع الله عن صحابته . شهادة أمته على الناس يوم القيامة . رفع الخطأ والنسيان والحرج عن أمته . إحلال الغنائم لهم . تفضيلهم على الأمم . تبرئة زوجه ببضع عشرة آية . أزواجه أمهات المؤمنين . تحريم نكاحهن من بعده . يؤتين أجرهن مرتين . الثناء على صحابته فى التوراة والإنجيل .

هذه بضع وستون مزية ، خص الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم ، وهى فى القرآن الكريم . وقد ثبتت خصائص أخرى ، فى الأحاديث الصحيحة والحسنة ، تضارع هذا العدد . ومن أراد استيفاءها فليراجع كتاب (الخصائص الكبرى) للحافظ السيوطى ، فقد استوعبها استيعاباً بالغاً ، إلا أنه لم يقتصر على الأحاديث الثابتة ، بل حشر فيها كثيراً من الأحاديث الضعيفة والواهية ، وبعض الموضوعات ، ناسياً ما التزمه فى خطبة الكتاب ، من صونه عن الواهى والموضوع . وفى نيتى أن ألخصه بتجريد ما فيه من الأحاديث الصحيحة والحسنة ، وطرح ما عداها .

وفق الله إلى ذلك وأعان عليه . بل شرعت فيه ، وكتبت منه جملة صالحة ، تجىء فى قدر ثلثه . لكن حال دون إتمامه عروض هذه المحنة ، عجل الله كشفها .

وكان الفراغ من تسويد هذا الكتاب بعد عصر يوم السبت السابع والعشرين من شهر ربيع النبوى سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة وألف . وتم تبييضه بعد عصر يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر ذى القعدة الحرام ، من السنة نفسها .

والله المسئول أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وسبباً لنيل شفاعة نبيه فى الموقف العظيم . وأن يفرج كربتنا ، ويستر عورتنا ، والحمد لله أولا وآخراً ، والصلاة والسلام على نبيه بداية ونهاية ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

النفحة الالهية

في

الصلاة على خير البرية

لأبي الفضل عبدالله بن محمد الصديق الحسني

عفا الله عنه وفرج كربه آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمدك الله حمداً يليق بربوبيتك . وأشكرك قياما بحق عبوديتك . وأشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ، تفعل ما تشاء ، وتحكم ما تريد . وأشهد أن سيدنا محمداً عبدك ورسولك ، وصفيك وخليلك . أرسلته للخلق عامة ، وبعثته بشيراً ونذيراً ، من اتبعه وأطاعه ، فهو الفائز السعيد . فصل اللهم عليه ، صلاة وسلاماً دائمين بدوام توالى أفضالك عليه . وارض عن آله الطاهرين ، وعن صحابته الأنصار والمهاجرين . ووفقنا لسلوك نهجهم القويم ، واحشرنا فى زمرتهم تحت لوائه فى الموقف العظيم . أما بعد . فهذا جزء فى الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، يشتمل على ثلاثة وأربعين حديثاً فى فضلها ، ثم مبشرات فيها فوائد ودعوات ، ثم صيغ صلوات . وسميته (النفحة الإلهية فى الصلاة على خير البرية) .

وقدمته هدية إلى جناب النبى الكريم ، عليه أفضل الصلاة والتسليم . راجياً أن أفوز بشفاعته ، وأكون فى جملة خدمته والله المسئول أن يقبله منى ، وينيلنى مرادى ، فعليه اعتمادى ، وإليه تفويضى واستنادى .

الحديث الأول

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم (إنَّ أولىَ الناسِ بى يومَ القيامةِ أكثرُهمْ علىَّ صلاةً) رواه الترمذى وحسنه .

الحديث الثانى

عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال (إن لله سيارةً منَ الملائكةِ يطلبونَ حلقَ الذكرِ . فإذَا أتوْا عليهَا حفوابهمْ ، ثُمْ بعثُوا برائدهمْ إلىَ ربِّ العزَّةِ تباركَ وتعالىَ . فيقولونَ : ربنَا أتينَا علىَ عبادٍ منْ عبادكَ يعظمونَ آلاءَكَ ويتلونَ كتابكَ ويصلونَ علىَ نبيكَ محمد صلىَّ اللهُ عليهِ وسلمَ ، ويسألونكَ لآخرتهمْ ودنياهُمْ فيقولُ تباركَ وتعالىَ : غشوهُمْ رحمتِى . فيقولونَ :

يا ربِّ إنَّ فيهمْ فلاناً الخطاءَ إنمَا اغتبقهمْ اغتباقاً . فيقولُ تباركَ وتعالىَ : غشوهم رحمتي ، فهمُ القومُ لا يشقى بهمْ جليسهمْ) رواه البزار بإسناد حسن .

الحديث الثالث

عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنَّ جبريلَ عليهِ السلامُ أتاني فبشرني ، فقالَ : إن اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ : مَنْ صلىَّ عليكَ صليتُ عليهِ ، ومنْ سلمَ عليكَ سلمتُ عليهِ) رواه الإمام أحمد ، وصححه الحاكم .

الحديث الرابع

عن أنس بن مالك ، ومالك بنِ أوس رضى الله عنهما ، قالا : خرجَ رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم يتبرزُ ، ولم يجد أحداً يتبعهُ ، ففزعَ عمرُ رضى الله عنه ، فاتبعَه بمطهرة ، يعني إداوةً ، فوجده ساجداً في شربة ، فتنحى عمرُ ، فجلس وراءه حتىَّ رفعَ رأسهُ . فقال (أحسنتَ يا عمرُ حين وجدتني ساجداً ، فتنحيتَ عنيِّ . إن جبريل عليه السلامُ أتاني ، فقال : مَن صلىَّ عليكَ واحدةً صلى اللهُ عليه عشراً ورفعهَ عشرَ درجاتٍ) رواه البخاري في الأدب المفرد ، ورواه الضياءُ في المختارة من حديث عمرَ رضى الله عنه ، وإسناده جيد صحيح .

الحديث الخامس

عن الحسن بن على عليهما السلام ، قال : قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم (حيثما كنتم فصلوا على فإن صلاتكم تبلغني) رواه الطبراني في الكبير والأوسط وإسناده حسن . ورواه ابن أبي شيبةَ في المصنف بإسناد صحيح من طريق حسن بن حسن بن على رضى الله عنهم ، قال : قال رسول الله صلى الله عليهِ وسلم (لا تتخذُوا قبري عيداً ولا بيوتكُم قبوراً وصلوا عليَّ حيثُما كنتمُ فإن صلاتكمُ تبلغني) .

الحديث السادس

عن عبد الله بن عمرو ، رضى الله عنهما ، قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم (إذا سمعتم المؤذنَ فقولوا مثلَ ما يقولُ . ثم صلوا عليّ فإنهُ منْ صلّى عليَّ صلاةً صلى اللهُ تعالى عليه بها عشراً . ثمُ سلوا اللهَ لي الوسيلةَ فإنها منزلةٌ في الجنةِ ، لا تنبغي إلا لعبد من عبادِ الله تعالىَ ، وأرجو أن أكونَ أنا وهوَ . فمن سأل اللهَ لي الوسيلةَ حلت لهُ الشفاعةُ) رواه مسلم في صحيحه .

الحديث السابع

عن أوْس بن أوْسٍ رضي الله عنه ، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم (أفضل أيامكمُ الجمعةُ فيهِ خلقَ آدمُ ، وفيه قبضَ ، وفيهِ النفخةُ ، وفيهِ الصعقةُ ، فأكثرُوا عليَّ من الصلاةِ فيهِ ، فإنَّ صلاتكم معروضةٌ عليَّ) قالوُا : وكيفَ تعرضُ عليك صلاتنا وقد أرمتَ ؟ يقولون : بليتَ . فقال (إنَّ اللهَ حرّمَ على الأرضِ أنْ تأكُلَ أجسادَ الأنبياءِ) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه ، وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وغيرهم .

الحديث الثامن

عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم (أكثرُوا من الصلاةِ عليّ يوْمَ الجمعةِ ، فإنهُ يومٌ مشهودٌ ، تشهدهُ الملائكةُ . وإنَّ أحداً لنْ يصليَ عليَّ ، إلا عرضتْ عليّ صلاتهُ ، حتىْ يفرغ منهَا) قلتُ : وبعدَ الموْتِ ؟ قال (إنَّ اللهَ حرمَ علىَ الأرْضِ أنْ تأكلَ أجسادَ الأنبياءِ ، فنبي اللهِ حيٌّ يرزقُ) رواه ابن ماجه والطبراني وابن المقرى ، بإسنادين ، أحدهما جيد .

الحديث التاسع

عن علي عليه السلام ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (البخيلُ مَنْ ذكرتُ عندهُ فلمْ يصلِّ عليّ) رواه النسائي . ورواه أحمد من حديث الحسين بن علي عليهما السلام ، وصححه الحاكم .

الحديث العاشر

عن أبي طلحةَ الأنصاري رضي الله عنه ، قال : دخلتُ على النبيّ صلى الله عليه سلم فوجدته مسرُوراً ، فقلتُ : يا رسول الله ، ما أدرى متىَ رأيتكَ أحسنَ بشراً ، وأطيبَ نفساً من اليومِ ؟ قال (ومَا يمنعني ؟ وجبريلُ خرجَ منْ عندي الساعَةَ فبشرني : أنَّ كلَّ عبدٍ صلىَّ عليَّ صلاةً ، يكتبُ لهُ بهَا عشرُ حسنات ، ويمحىَ عنهُ عشرُ سيئات ، ويرفعُ له بهَا عشرُ درجاتٍ ، وتعرضُ عليَّ كما قالهَا ، ويردُّ عليهِ بمثلِ ما دعَا) رواه عبد الرزاق فى المصنف ، والإمام أحمد فى المسند .

الحديث الحادى عشر

عنه أيضاً ، قال : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ذاتَ يومٍ ، والبشرى ترىَ فى وجهه . فقال (جاءني الملك ، فقال لي : يا محمدُ إنَّ اللهَ تعالىَ يقولُ لك : أمَا ترضىَ أنْ لا يصلىَ عليكَ أحدٌ منْ أمتكَ إلا صليتَ عليهِ عشراً ؟ ولا يُسلمَ عليكَ أحدٌ منْ أمتكَ إلا سلمتُ عليهِ عشراً ؟ قلتُ : بلىَ يا ربْ) رواه ابنُ حبانَ فى صحيحه .

الحديثُ الثانى عشر

عن أنسٍ رضى الله عنه ، قال : قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم (مَنْ صلى عليَّ صلاةً واحدةً ، بلغتني صلاتهُ . وصليتُ عليه ، وكتبَ لهُ سوى ذلكَ عشرُ حسناتٍ) رواه الطبرانى فى الأوسط ، وإسناده لا بأسَ به .

الحديث الثالثَ عشرَ

عن أبي أمَامةَ رضى الله عنه قال ، قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم (أكثروا عليَّ منَ الصلاةِ فى كلّ يومِ جمعةٍ ، فإنَّ صلاةَ أمتي تعرضُ عليَّ فى كل يومِ جمعةٍ ، فمَنَ كانَ أكثرهَمْ عليَّ صلاةً كانَ أقربهَمْ مني منزلةً) رواه البيهقي فى حياةِ الأنبياء . وإسنادُه حسنٌ .

الحديثُ الرابعَ عشرَ

عن عُمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم (أكثرُوا الصلاةَ عليَّ فى الليلةِ الزهراءِ واليومِ الأغرِّ فإنَّ صلاتكُم تعرَضُ عليَّ فأدْعُو لكمْ وأستغفرُ) رواه الحافظ أبو القاسم ابن بشكُوالٍ . ٢

الحديثُ الخامسَ عشرَ

عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : قال رســـولُ الله صلى الله عليه وسلم ٣ (أكثرُوا الصلاةَ عليَّ فإنَّ اللهَ وكلَ بى ملكاً عندَ قبرى ، فإذَا صلَّى عليَّ رجلٌ منْ أمتِي . قالَ لى ذلكَ الملكُ : يامحمدُ إنَّ فلانَ بنَ فلانٍ صلَّى عليكَ) رواه الديلمى فى مسند الفردوسِ .

الحديثُ السادسَ عشرَ

عن أبى مسعود الأنصارى رضى الله عنه قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم (أكثروا الصلاةَ عليَّ فى يومِ الجمعةِ ، فإنهُ ليسَ أحدٌ يصلى عليَّ يومَ الجمعةِ إلاَّ عرضتْ عليَّ صلاتهُ) رواه الحاكمُ وصححه .

الحديثُ السابعَ عشرَ

عن عمار بن ياسر رضى الله عنهما ، قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم (إنَّ للهَ تباركَ وتعالى ملكاً أعطاهُ أسماءَ الخلائقِ ، فهوَ قائمٌ على قبرى إذا مت فليسَ أحدٌ يصلى عليَّ . إلاَّ قالَ : يا محمد صلى عليكَ فلانُ بنَ فلانٍ . فيصلِّى الربُّ تباركَ وتعالى على ذلكَ الرجُلِ بكلٍّ واحدةٍ عشراً) رواه البزار والحارث ابن أبى أسامةَ وأبو الشيخ والطبرانى ، وهو حديث حسن .

الحديثُ الثامنَ عشرَ

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال . قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم (منْ صلى على عندَ قبرِى سمعتهُ ، ومنْ صلى عليَّ منْ بعيدٍ أعلمتهُ) رواه أبو الشيخ ، وإسناده

جيد ، كما نقل الحافظ السخاوى عن شيخه الحافظ ابن حجر رحمهما الله تعالى .

الحديث التاسعَ عشرَ

عن أنس رضى الله عنه ، قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم (منْ صلىَّ علىَّ مائةً فى يوْمِ الجمعةِ وليلةِ الجمعةِ قضى اللهُ لهُ مائةَ حاجةٍ سبعينَ منْ حوائجِ الآخرةِ وثلاثينَ منْ حوائجِ الدُّنيا ثمَّ وكلَ الله بذلكَ ملكاً يدخلُ علىَّ فى قبرى كما تدخلُ عليكم الهدايا إنَّ علمى بعدَ موْتى كعلمى فى الحياةِ) رواه ابن مندهْ فى فوائده ، والأصبهانى فى الترغيب ، والديلمى فى مسند الفردوس . والبيهقى فى حياة الأنبياء ، وليس فى سنده متروك . ورواه ابن منده عن جابر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال (منْ صلىَّ علىَّ فى كلِّ يومٍ مائةَ مرةٍ قضىَ اللهُ لهُ مائةَ حاجةٍ سبعينَ منها لآخرتهِ وثلاثينَ منها لدنياهُ) قال الحافظ أبو موسى المدينى : حديث غريب حسن .

الحديث العشرون

عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه ، قال : أوصانى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن أصليهما فى السفرِ والحضرِ — يعنى صلاةَ الضحىَ — وأنْ لا أنامَ إلاَّ على وترٍ ، وبالصلاةِ على النبى صلىَّ الله عليه وسلم . رواه بقىُّ بن مخلد ، ومن طريقه ابن بشكوال .

الحديث الحادى والعشرون

عن أبى سعد الخدْرى رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أيمَا رجُلٍ مسلمٍ لم يكنْ عندهُ صدقةٌ . فليقلْ فى دعائه : اللهمَّ صلِّ على محمد عبدكَ ورسولك . وصل علىَ المؤمنينَ والمؤمنات ، والمسلمينَ والمسلمات . فإنها زكاة) وقال (لا يشبع مؤمنٌ خيراً حتى يكونَ منتهاهُ الجنةَ) رواه ابن حبانَ فى صحيحه .

الحديث الثانى والعشرون

عن جابر رضى الله عنه ، قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم (مَا اجتمعَ قومٌ ثمَّ تفرقوا عنْ غيرِ ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ وصلاةٍ على النبى صلى الله عليهِ وسلمَ

إلاّ قاموا عن أنتن جيفة) رواه أبو داودَ الطيالسي في مسنده ، وإسناده على شرط مسلم .

الحديث الثالثُ والعشرون

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (ما جلسَ قومٌ مجلساً لم يذكروا الله تعالىَ فيه ولم يصلوا على نبيه صلى اللهُ عليه وسلم إلاّ كانَ عليهمْ منَ الله ترة يومَ القيامة فإنْ شاءَ عذبهمْ وإنْ شاءَ غفرَ لهُم) رواه أحمدُ والترمذي وحسنه .

الحديث الرابعُ والعشرون

عن أبي بردةَ بن نيار رضي الله عنه ، قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم (منْ صلىّ عليّ منْ أمتي واحدة مخلصاً منْ قلبه . صلى اللهُ عليه بها عشرَ صلوات ، ورفعهُ بها عشرَ درجات . وكتبَ لهُ بها عشرَ حسنات ، ومحا عنهُ بها عشرَ سيئات) رواه النسائي والطبراني ، ورجال إسناده ثقات .

الحديثُ الخامسُ والعشرون

عن أبي أمامةَ رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (منْ صلىّ عليّ صلىّ عليه عشراً . ملكٌ موكلٌ بها حتى يبلغنيهَا) رواه الطبراني .

الحديث السادس والعشرون

عن أنس رضي الله عنه ، قال : قال رسولُ الله صلىّ الله عليه وسلم (صلوا عليّ فإنْ الصلاةَ عليّ كفارةٌ لكمْ ومنْ صلىْ عليّ صلاةَ صلىّ الله عليه عشراً) رواه ابن أبي عاصم في كتاب الصلاة النبوية .

الحديث السابع والعشرون

عن عائشةَ رضي الله عنها ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لا صلاةَ إلا بطهور وبالصلاة عليّ) رواه الدارقطني وغيره .

الحديث الثامن والعشرون

عن أبي الدَّرْداءِ رضى الله عنه ، قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم (منْ صلىَّ عليَّ حينَ يصبحُ عشراً . أدركتهُ شفاعتي يومَ القيامةِ) رواه الطبراني بإسنادين أحدهما جيد .

الحديث التاسعُ والعشرون

عن ابن عمرَ وأبي هريرة رضى الله عنهم ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (صلوا عليَّ صلىَّ الله عليكمْ) رواه ابنُ عدي ، والنميري من طريقه .

الحديثُ الثلاثون

عن أنس رضى الله عنه ، قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم (منْ ذكرْتُ عنده فليصلِّ عليَّ . ومنْ صلىَّ عليَّ مرَّةً صلى اللهُ عليهِ عشراً) رواه الإمام أحمد :

الحديثُ الحادى والثلاثون

عن الحسين بنِ على عليهما السلامُ ، قال : قالَ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلمَ (منْ ذكرتُ عنده فخطىءَ الصلاةَ عليَّ . خطىءَ طريقَ الجنةِ) رواه الطبرى والطبرانى .

الحديثُ الثانى والثلاثون

عن عمر رضى الله عنه ، قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلمَ (منْ صلىَّ عليَّ صلاةً صلىَّ اللهُ عليه بهَا عشرَ صلواتٍ . فليقلَّ عبدٌ أو ليكثرْ) رواه الطبرى ، وقال : هذا خبر عندنا صحيح سنده .

الحديثُ الثالثُ والثلاثون

عن أنس رضى الله عنه ، عن النبي صلىَّ اللهُ عليه وسلمَ ، قال (منْ صلىَّ عليَّ في يومِ الجمعةِ ألفَ مرةٍ . لمْ يمت حتى يرَى مقعدهُ منَ الجنةِ) رواه أبو حفص ابن شاهين - واللفظ له - والضياء المقدسى فى المختارة ، ولفظه (منْ صلىَّ عليَّ فى يومٍ ألفَ مرَّةٍ) الحديث .

الحديثُ الرابعُ والثلاثون

عن أبي بكر الصديقِ رضى الله عنه ، قال : قالَ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلمَ (منْ صلىَّ عليَّ كنتُ له شفيعاً يومَ القيامةِ) رواه أبو حفص ابن شاهين وغيره .

الحديثُ الخامسُ والثلاثون

عن عائشةَ رضى الله عنها ، قالت : قال رسولُ الله صلىْ الله عليه وسلمَ (منْ صلىَّ عليَّ صلتْ عليهِ الملائـكةُ ما صلىَّ عليَّ . فليكثرْ عبدٌ أوْ ليقلْ) رواه الضياء المقدسى فى المختارة .

الحديث السادس والثلاثون

عن أبي هريرة رضى لله عنه ، قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم (منْ صلى عليَّ يومَ الجمعةِ ثمانينَ مرةً غفر اللهُ لهذنوب ثمانينَ سنةً) قيلَ : يا رسولَ الله كيفَ الصلاةُ عليكَ ؟ قال : (تقولُ : اللهمَّ صلْ على محمد عبدكَ ونبيكَ ورسولك النبى الأمى . وتعقد واحدةً) رواه الدارقطنى ، وحسنه الحافظ العراقى .

الحديث السابع والثلاثون

عن أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلمَ (منْ كتبَ عنى علماً فكتبَ معهُ صلاةً عليَّ . لمْ يزلْ فى أجرٍ ما قرىء ذلكَ الكتابُ) رواه الدارقطنى وغيره .

الحديث الثامن والثلاثون

عن أبي مسعود الأنصارى رضى الله عنه ، قال : قال رسولُ الله صلىَ اللهُ عليه وسلمَ (منْ صلىَّ صلاةً لمْ يصل فيهَا عليَّ وعلىَ أهلِ بيتِى . لمْ تُقبَلْ منهُ) . رواه الدارقطنى والبيهقى .

الحديثُ التاسع والثلاثون

عن أبي هريرةِ رضى الله عنه ، قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلمَ (مَنْ

صلى علىّ فى كتاب لم تزل الملائكة تصلى عليه . ما دام اسمى فى ذلك الكتاب) رواه الطبرانى وغيره .

الحديث الأربعون

عن أنس رضى الله عنه ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : (من صلى علىّ صلاةً واحدةً صلىّ اللهُ عليه عشراً ومن صلىّ علىّ عشراً صلىّ اللهُ عليه مائةً ومن صلىّ علىّ مائةً كتبَ اللهُ بينَ عينيه براءةً منَ النفاقِ وبراءةً منَ النارِ وأسكنهُ يوم القيامةِ معَ الشهداءِ) رواه الطبرانى وغيره .

الحديث الحادى والأربعون

عن رويفع بن ثابت الأنصارى رضى الله عنه ، قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم (من قالَ : اللهمَّ صلِّ على محمد وأنزلهُ المقعدَ المقرب عندكَ يومَ القيامةِ . وجبتْ له شفاعتى) رواه أحمد وابن أبى الدنيا . وغيرُهما ، وهو حديث حسن .

الحديث الثانى والأربعون

عن أبى بن كعب رضى الله عنه ، قال : قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلمَ إذَا ذهبَ ثلثُ الليلِ ، قامَ فقالَ (يا أيها الناسُ اذكرُوا اللهَ جاءتِ الراجفةَ تتبعُها الرادفةُ جاءَ الموتُ بما فيه) قال أبىُّ بنُ كعب : فقلتُ : يا رسولَ الله إنى أكثرُ الصلاةَ عليك ، فكم أجعلُ لكَ منْ صلاتى ؟ قال (ما شئتَ) قلتُ : الربعَ ؟ قال (ما شئتَ وإنْ زدتَ فهوَ خيرٌ لكَ) قلتُ : فالنصفَ ؟ قال (ما شئتَ وإنْ زدتَ فهوَ خيرٌ لكَ) قلتُ : فالثلثين ؟ قالَ (ما شئتَ وإنْ زدتَ فهوَ خيرٌ لكَ) قلتُ : أجعل لكَ صلاتى كلها ؟ قالَ (إذنْ تكفىَ همكَ ويغفرَ لكَ ذنبك) رواه الترمذى والحاكم وصححاه .

الحديث الثالثُ والأربعون

عن جابر رضى الله عنه ، قال : رقىَ النبىُّ صلىَّ اللهُ عليه وسلمَ المنبرَ ، فلما رقى الدرجةَ الأولىَ ، قال (آمينْ) ثم رقىَ الثانيةَ ، فقالَ (آمين) ثمَّ رقىَ الثالثةَ ،

فقال (آمين) فقالوا : يا رسولَ الله سمعناكَ تقولُ (آمين) ثلاثَ مرات ؟ فقال (لما رقيتُ الدرجةَ الأولىَ . جاءني جبريلُ عليه السلامُ ، فقال : شقيَ عبدٌ أدْرَكَ رمضانَ فانسلخ منهُ ولمْ يغفرْ لهُ . فقلتُ : آمين . ثم قالَ : شقيَ عبدٌ أدركَ والديه أوْ أحدَهما فلمْ يدخلاهُ الجنةَ . فقلتُ : آمين . ثم قالَ : شقيَ عبدٌ ذكرْتَ عندَهُ ، فلمْ يصل عليكَ . فقلتُ : آمين) رواه البخارى فى الأدب المفرد ، وهو حديث صحيح بل مشهور .

المبشرات (١)

قال الإمام تاج الدين أبو حفص عمر بن على الفاكهى المالكى ، فى كتابه (الفجر المنير فى الصلاة على البشير النذير) : أخبرنى الشيخ الصالح موسى الضرير ، أنه ركب فى البحر الملح . قال : وقد قامت علينا ريح تسمى : الإقلابية . قلَّ من ينجو منها من الغرق ، فنمت . فرأيت النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول لى : قل : لأهل المركب يقولوا ـ ألف مرة ـ : اللهمَّ صلِّ علىَ محمد صلاةً تنجينَا بها منَ جميع الأهوَال والآفات ، وتقضى لنَا بها جميعَ الحاجات ، وتطهرُنا بها منْ جميع السيئات ، وترفعنا بها أعلىَ الدرجات ، وتبلغنا بها أقصى الغايات ، منْ جميع الخيرات فى الحياة وبعدَ الممات . قال : فاستيقظت وأخبرت أهل المركب بالرؤيا ، فصلينا نحو ثلاثمائة ، ففرج الله عنا ، وأسكن تلك الريح ، ببركة الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم . نقلها الإمام مجد الدين الفيروزابادى فى كتاب (الصلات والبشر فى الصلاة على سيد البشر) ونقل عقبها عن الإمام الحسن بن على الأسوانى ، قال : من قالها فى كل مهم ونازلة وبلية ألف مرة ، فرج الله عنه . قلت : هذا مأخوذ من أمر النبى صلى الله عليه وسلم ، لأهل المركب بقراءتها العدد المذكور . وقد جعلها مولانا الأستاذ الإمام الوالد رضى الله عنه من أذكار وظيفة طريقتنا الصديقية .

(٢)

حكى الإمام أبو عبد الله القسطلانى ، أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، وشكا إليه الفقر . فقال له : قل : اللهمَّ صلِّ علىَ محمدٍ وعلىَ آلِ محمدٍ ، وهبَ لنَا اللهمَّ من رزقك الحلالِ الطيبِ المباركِ ، ما تصونُ بهِ وجوهنا عن التعرضِ لأحدٍ من خلقكَ ، واجعل لنا اللهمَّ إليهِ طريقاً سهلاً من غيرِ تعبٍ ولا نصبٍ ولا منةٍ ولا تبعةٍ . وجنبنَا اللهمَّ الحرامَ حيثُ كانَ ، وأينَ كانَ ، وعندَ منْ كانَ . وحلْ بيننَا وبين أهلهِ ، واقبضْ عنَّا أيديهمْ ، واصرفْ عنَّا قلوبهُمْ . حتى لا نتقلبَ إلاَّ فيما يرضيكَ ، ولا نستعينَ بنعمتكَ إلاَّ علىَ ما تحبُ ، يا أرحمَ الراحمينَ .

(٣)

قال الحافظ قطب الدين الحلبى : رأيت أبا إسحاق إبراهيم بن على بن عطية ، وقال لى رأيت النبيَّ صلى الله عليه وسلم فى النوم ، فقلت : يا رسول الله أسألك شفاعتك ، فقال : أكثرْ من الصلاةِ علىَّ ، صلى الله عليه وسلمَّ .

(٤)

روى الحفاظ أبو موسى المدينى ، وعبد الغنى بن سعيد ، وأبو القاسم ابن بشكوال . فى كتبهم فى فضل الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، عن أبى بكر بن محمد بن عمر ، قال : كنت عند أبى بكر بن مجاهد - أحد أئمة القراء - فجاء الشبلى - من كبار الصوفية - فقام إليه أبو بكر بن مجاهد ، فعانقه ، وقبل بين عينيه . فقلت : يا سيدى تفعل بالشبلى هكذا ؟ ! وأنت وجميع من ببغداد يتصورون أنه مجنون ؟ فقال لى : فعلت كما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل به . وذلك أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ، وقد أقبل الشبلى ؟ فقام إليه ، وقبل بين عينيه . فقلت يا رسول الله أتفعل هذا بالشبلى ؟ فقال : هذا يقرأ بعد صلاته (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم . فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) ويتبعها بالصلاة على ، صلى الله عليه وسلم .

(٥)

قال الإمام القسطلانى شارح البخارى فى (مسالك الحنفا) : روينا عن الطبرانى ، أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فى صفته التى اتصلت بنا . فقال له : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته . يا رسول الله قد ألهمنى الله كلمات ، أقولهنَّ ؟ قال : وما هن ؟ قال : اللهم لك الحمد بعدد من حمدك : ولك الحمد بعدد منْ لم يحمدْك ، ولك الحمد كما تحب أن تحمد . اللهم صل على محمد بعدد من صلى عليه ، وصل على محمد بعدد من لم يصل عليه ، وصل على محمد كما تحب أن يصلى عليه . فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدث ثناياه ، ورئى النور يخرج من التفلج الذى بين ثناياه ، صلى الله عليه وسلم .

(٦)

روى البيهقى فى مناقب الشافعى ، من طريق محمد بن حمدان الطرائفى ، عن أبى عبد الله الدنيورى ، قال : سمعت أبا عبد الله الشافعى ، يقول . رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقلت : يا رسول الله ، بم جزى الشافعى عنك ؟ حيث يقول فى كتاب الرسالة : وصلى الله على محمد كلما ذكره الذاكرون ، وغفل عن ذكره الغافلون . قال : جزى عنى أنه لا يوقفُ للحساب . ومثل هذا ما رواه الحافظ ابن مسدى فى مسلسلاته ، عن أبى الحسين يحيى بن الحسين الطائى ، قال : سمعت ابن بنان الأصبهانى يقول : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقلت : يا رسول الله ، محمد بن إدريس الشافعى ، ابن عمك . هل خصصته بشىء ؟ أو : هل نفعته بشىء ؟ قال : نعمْ ، سألت الله أن لا يحاسبه . قلت : يا رسول الله بم ؟ قال : لأنه كان يصلى على صلاة ، لم يصل على أحد مثلها . قلت : فما تلك الصلاة ؟ قال : كان يقول : اللهم صل على محمد كلما ذكره الذاكرون ، وصل على محمد كلما غفل عن ذكره الغافلون . قلت : هذه الصلاة بليغة جامعة ، لأنها تعم عالم الملائكة والإنس والجن ، إذ ما من أحد من هذه العوالم إلا وهو إما ذاكر للنبى صلى الله عليه وسلم ، وإما غافل عنه .

(٧)

روينا من طرق عن الحافظ السخاوى ، قال - فى (القول البديع فى الصلاة على النبى الشفيع) - : أخبرنى غير واحد عن القاضى برهان الدين ابن جماعة إذنا ، عن الإمام أبى عمرو ابن المرابط سماعا ، أن الحافظ أبا أحمد الدمياطى ، أخبره عن الشيخ على بن عبد الكريم الدمشقى ، فيما شافهه به ، قال : رأيت فى المنام محمد ابن الإمام الحافظ زكى الدين المنذرى ، بعد موته - عند وصول الملك الصالح ، وتزيين المدينة له - فقال لى : فرحتم بالسلطان ؟ قلت : نعم ، فرح الناس به . فقال : أما نحن ، فدخلنا الجنة ، وقبلنا يده - يعنى النبى صلى الله عليه وسلم - وقال : أبشروا . كل من كتب بيده : قال رسول الله عليه وسلم ، فهو معى فى الجنة .

قال الحافظ السخاوى : هذا سند صحيح ، والمرجو من فضل الله حصول ذلك .

(٨)

روى الخطيب وابن بشكوال والتيمى الحافظ فى الترغيب ، عن أبى سليمان محمد بن الحسين ، قال : قال رجل من جوارى ، يقال له الفضل - وكان كثير الصوم والصلاة - كنت أكتب الحديث ، ولا أصلى على النبى صلى الله عليه وسلم . فرأيته فى المنام ، فقال لى : إذا كتبت أو ذكرت فلم لا تصلى علىّ ؟ ثم رأيته صلى الله عليه وسلم مرة من الزمان ، فقال لى : بلغتنى صلاتك ، فإذا صليت علىّ أو ذكرت . فقل : صلى الله عليه وسلم .

(٩)

روى الخطيب ، وابن بشكوال ، وأبو اليمن ابن عساكر ، عن محمد بن يحيى الكرمانى قال : كنا يوماً بحضرة أبى على ابن شاذان ؟ من الحفاظ - فدخل علينا شاب لا يعرفه منا أحد . فقال : أيكم أبو على ابن شاذان ؟ فأشرنا إليه . فقال : أيها الشيخ رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقال لى : سل عن مسجد أبى على ابن شاذان فإذا لقيته ، فأقرئه منى السلام . ثم انصرف الشاب ، فبكى أبو على ، وقال : ما أعرف لى عملا أستحق به هذا . إلا أن يكون صبرى على قراءة الحديث ، وتكرير الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، كلما جاء ذكره . قال الكرمانى : ولم يلبث أبو على بعد

ذلك إلا شهرين أو ثلاثة حتى مات رحمه الله تعالى . قلت : مات ببغداد سنة ٤٢٦ هجرية وانفرد فى وقته بإسماع كتاب (الشمائل المحمدية) للترمذى .

(١٠)

روى التيمى فى الترغيب ، وأبو اليمن بن عساكر ، عن الإمام سعد الزنجانى، قال : كان عندنا بمصر ، شخص زاهد ، يسمى أباسعيد الخياط . وكان لا يختلط بالناس ، ولا يحضر المجالس . ثم انه داوم على حضور مجلس ابن رشيق ، فتعجب الناس ، فسألوه فقال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى منامى · فقال : احضر مجلسه ، فإنه يكثر فيه الصلاة علىّ . صلى الله عليه وسلم . وروى أبو عبد الله النميرى المالكى فى (الإعلام بفضل الصلاة على النبى عليه الصلاة والسلام) وابن بشكوال الحافظ فى (القربة إلى رب العالمين بالصلاة على محمد سيد المرسلين) أن الخياط هذا ، لما حضر مجلس أبى محمد الحسن بن رشيق ـ وكان من أهل الحديث ـ أكرمه وقال له : هل للشيخ شيء يقدم ؟ فقال : اقرؤا . ثم قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقال : احضر مجلس ابن رشيق ، فإنه يصلى على فيه كذا وكذا مرة . وروى ابن بشكوال : أن ابن رشيق هذا ، رؤى بعد موته فى حالة حسنة ، فقيل له : بم أوتيت هذا ؟ فقال : بكثرة صلاتى على النبى صلى الله عليه وسلم .

(١١)

روى أبو اليمن ابن عساكر عمن حدثه عن أبى العباس ابن عبد الدايم ـ وكان كثير النقل لكتب العلم على اختلاف فنونه ـ أنه حدثه من لفظه ، قال : كنت إذا كتبت فى كتب الحديث وغيرها : النبى . أكتب لفظ الصلاة ،دون التسليم . فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقال لى ؟ لم تحـــرم نفسك أربعين حسنة ؟ قلت : وكيف ذلك يارسول الله ؟ قال : إذا جاء ذكرى ، تكتب : صلى الله عليه وسلم . وهى أربعة أحرف ، كل حرف بعشر حسنات . وعدهن صلى الله عليه وسلم بيدى .

(١٢)

روى الحافظ ابن الصلاح بإسناده إلى الحافظ حمزة الكتانى ، قال : كنت أكتب الحديث ، وكنت عند ذكر النبى . أكتب : صلى الله عليه ، ولا أكتب : وسلم. فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقال لى : مالك لا تتم الصلاة علىّ ؟ فما كتبت بعد ذلك : صلى الله عليه ، إلا كتبت : وسلم .

(١٣)

روى ابن بشكوال عن الحسن بن موسى الخضرى . المعروف بابن عجينة ، قال : كنت إذا كتبت الحديث ، أتخطى فيه الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، أريد بذلك العجلة . فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقال لى : مالك لا تصلى علىّ إذا كتبت ؟ كما يصلى علىّ أبو عمرو الطبرى ؟ قال : فانتبهت وأنا فزعٌ ، فجعلت لله على نفسى ألا أكتب حديثاً . إلا كتبت : صلى الله عليه وسلم .

(١٤)

قال الحافظ ابن الملقن فى كتاب الحدائق : كان شاب يطوف فى البيت ، ويشتغل بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل له : هل عندك فى هذا شىء ؟ قال : نعم ، خرجت مع أبى حاجين ، فمرض فى بعض المنازل ، ومات ، فاسود وجهه وازرقت عيناه ، وانتفخ بطنه . فبكيت ، وقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون : مات أبى فى غربته هذه الموتة . فلما كان الليل غلبنى النوم ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه ثياب بيض ، ورائحته عطرة . فدنا من أبى ، ومسح على وجهه ، فصار أشد بياضا من اللبن . ثم مسح على بطنه ، فصار كما كان . ثم لما أراد الانصراف ، قال : إن أباك كان يكثر المعاصى والذنوب ، وكان يكثر الصلاةَ علىّ . فلما نزل ما نزل ، استغاث بى فأغثته ، وأنا غياث لمن أكثرَ الصلاةَ علىّ فى دار الدنيا .

(١٥)

روى ابن الملقن فى الحدائق عن على بن عيسى الوزير ، قال : كنت أكثر الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما صرفت عن الوزارة ؛ رأيت فى المنام ، كأنى راكب

حماراً ، ورأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فترجلت له ، فقال لى : ارجع إلى مكانك فأصبحت ، وقلدت الوزارة ببركة الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم .

(١٦)

قال أبو سعيد الواعظ فى كتابه التعبير : بلغنا أن رجلا رأى النبي صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فشكا إليه ضيق حاله ، فقال له : اذهب إلى على بن عيسى . وقل له : يدفع لك ما تصلح به أمرك . فقال : يا رسول الله بأى علامة ؟ قال : قل له : بعلامة أنك رأيتنى على البطحاء ، وكنت على نشز من الأرض ، فنزلت ، وجئتنى . فقلت : ارجع إلى مكانك . وكان على بن عيسى قد عزل ، فردت إليه الوزارة . فلما انتبه ذلك الرجل ؛ جاء إلى على بن عيسى ـ وهو يومئذ وزير ـ فذكر قصته ، فقال : صدقت . ودفع إليه أربعمائة دينار ، فقال : اقض بهذه دينك . ودفع إليه أربعمائة دينار أخرى ، فقال : اجعلها رأس مالك ، فإذا انفقت ذلك ، فارجع إلىّ .

(١٧)

قال عبد الواحد بن زيد ـ أحد كبار الزهاد ـ كان لنا جار يخدم السلطان ، وهو معروف بالفساد والغفلة عن الله تعالى . فرأيته ليلة فى المنام ، ويده فى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله إن هذا العبد السوء من المعرضين عن الله تعالى ، فكيف وضعت يدك فى يده ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : قد عرفت ذلك ، وها أنذا ماض به لأشفع له عند الله تعالى . فقلت : يا رسول الله بأى وسيلة بلغ ذلك ؟ قال : بكثرة صلاته علىّ ، فإنه فى كل ليلة حين يأوى إلى فراشه ، يصلى علىّ ألف مرة ، وإنى لأرجو الله تعالى أن يقبل شفاعتى فيه . قال عبد الواحد : فلما أصبحت ، إذا أنا بذلك الغلام ، قد دخل المسجد باكياً ـ وكنت أقص على أصحابى ما رأيته له ـ فلما دخل ، سلم . وقال يا عبد الواحد مد يدك ، فقد أرسلنى إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأتوب على يدك . وذكر لى ما جرى بينك وبينه الليلة فى شأنى . فلما تاب سألته عن رؤياه ؟ فقال : أتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأخذ بيدى ، وقال : لأشفعن لك إلى ربى لأجل صلاتك علىّ . فلما انطلقت معه ، شفع لى . وقال : إذا أصبحت فائت عبد الواحد وتب على يديه ، واستقم ».

(١٨)

روى البيهقي أن الإمام الشافعي رؤى في المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي . فقيل له : بماذا ؟ قال : بخمس كلمات ، كنت أصلي بهن على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقيل له : وما هذه ؟ قال : كنت أقول : اللهم صل على محمد عدد من صلى عليه ، وصل على محمد بعدد من لم يصل عليه ، وصل على محمد كما أمرت أن يصلّى عليه ، وصل على محمد كما تحب أن يصلى عليه ، وصل على محمد كما تنبغي الصلاة عليه !.

(١٩)

روى ابن بشكوال عن الزعفراني ، قال : سمعت خالي الحسن بن محمد ، يقول : رأيت الإمام أحمد بن حنبل في النوم ، فقال لي : يا أبا علي لو رأيت صلاتنا على النبي صلى الله عليه وسلم في الكتب ، كيف تزهر بين أيدينا ؟ ! .

(٢٠)

روى النميري عن سفيان بن عيينة ، قال : كان لي أخ مؤاخ ، فمات ، فرأيته في النوم فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي . قلت : بماذا ؟ قال : كنت أكتب الحديث ، فإذا جاء ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، كتبت : صلى الله عليه وسلم ، أبتغي بذلك الثواب ، فغفر لي بذلك .

(٢١)

روى أبو اليمن ابن عساكر عن جعفر بن عبد الله . قال : رأيت أبا زرعة ـ من أئمة الحفاظ ـ في المنام ، وهو في السماء يصلي بالملائكة . فقلت له : بم نلت هذا ؟ قال : كتبت ألف ألف حديث ، إذا ذكرت النبي صلى الله عليه وسلم ، أصلي عليه ، صلى الله عليه وسلم .

وقد قال صلى الله عليه وسلم (من صلى علي مرة صلى الله عليه عشراً) . قلت : بمقتضى هذا الحديث الصحيح ، يكون الله تعالى قد صلى على أبي زرعة الرازي المذكور عشرة آلاف ألف مرة ، وهذه بشارة عظيمة لأهل الحديث جعلنا الله منهم ، لأنهم

أكثر الناس صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، نطقاً وكتابة . ومما يزيدهم شرفاً ورفعة أن النبي صلى الله عليه وسلم إمامهم يوم القيامة ، وبه يدعون . لقوله تعالى (يوم ندعوا كل أناس بإمامهم) ولا إمام لهم في الدنيا إلا النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو إمامهم في الآخرة .

(٢٢)

روى النميرى وابن مسدى وابن بشكوال وغيرهم من طريق أبي صالح عبد الله بن صالح الصوفى ، قال : رئى بعض أصحاب الحديث في المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى. فقيل له : بأى شىء ؟ قال: بصلاتى في كتابى على النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢٣)

روى ابن بشكوال من طريق إسماعيل بن على بن المثنى عن أبيه ، قال : رئى بعض أصحاب الحديث في النوم ، فقيل له . ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى . قيل : بماذا ؟ قال : بكثرة ما كتبت بهاتين الأصبعين : صلى الله عليه وسلم .

(٢٤)

روى الخطيب وابن بشكوال من طريقه عن سفيان بن عيينة ، قال : حدثنا خلف صاحب الخلقان ، قال : كان لى صديق يطلب معى الحديث ، فمات . فرأيته في المنام ، وعليه ثياب خضر جدد يجول فيها . فقلت له : ألست كنت تطلب معى الحديث ؟ فما هذا الذى أرى ؟ فقال : كنت أطلب معكم الحديث ، فلا يمر لى حديث فيه ذكر النبي، إلا كتبت في أسفله : صلى الله عليه وسلم ، فكافأنى بهذا الذى ترى ، صلى الله عليه وسلم

(٢٥)

روى أبو القاسم التيمى في الترغيب عن أبي الحسن الميمونى ، قال : رأيت الشيخ أبا على الحسن بن عيينة في المنام بعد موته ، وكأن على أصابع يديه شيئاً مكتوباً بلون الذهب ، أو بلون الزعفران . فسألته عن ذلك ، وقلت : يا أستاذ أرى على أصبعيك شيئاً مليحاً مكتوباً ، ماهو ؟ قال : يا بنى هذا لكتابتى لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو قال : لكتابتى صلى الله عليه وسلم ، في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢٦)

روى ابن بشكوال عن عبد الواحد بن زيد ، قال : خرجت حاجاً ، فصحبني رجل ، فكان لا يقوم ولا يقعد ، ولا يذهب ولا يجيء ، إلا صلى على النبي ﷺ . فقلت له فى ذلك ؟ فقال : أخبرك عن ذلك . خرجت منذ سنيات إلى مكة ، ومعى أبى ، فلما انصرفنا ، قلنا فى بعض المنازل . فبينما أنا نائم ، أتانى آت ، فقال لى : قم ، فقد أمات الله أباك ، وسود وجهه . فقمت مذعوراً ، فكشفت الثوب عن وجه أبى ، فإذا هو ميت أسود الوجه . فدخلني من ذلك رعب ، فبينما أنا على ذلك من الغم ، غلبتنى عيناى فنمت . فإذا على رأسى أربعة سودان ، معهم أربعة أعمدة من حديد ، عند رأسه ، وعند رجليه ، وعن يمينه ، وعن شماله . فأقبل رجل حسن الوجه ، يمشى فى ثوبين أخضرين . فقال لهم : تنحوا . فرفع الثوب عن وجهه ، فمسح وجهه بيديه ، ثم أتانى ، فقال : قم قد بيض الله وجه أبيك . فقلت : من أنت ؟ بأبى أنت وأمى . قال : أنا محمد رسول الله . فكشفت الثوب عن وجه أبى ، فإذا هو أبيض الوجه . فأصلحت من شأنه ودفنته . قال الإمام أبو عبد الله محمد بن النعمان التلمسانى . فى (مصباح الظلام) : وكان هذا الرجل يكثر الصلاة على النبي ﷺ .

(٢٧)

روى أبو نعيم وابن بشكوال عن سفيان الثورى ، قال : بينما أنا حاج ، إذ دخل على شاب لا يرفع قدما ولا يضع أخرى ، إلا وهو يقول : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد فقلت له : أبعلم تقول هذا ؟ قال : نعم . ثم قال : من أنت ؟ قلت : سفيان الثورى . قال : العراقى ؟ قلت : نعم . قال : هل عرفت الله ؟ قلت : نعم . قال : كيف عرفته ؟ قلت : بأنه يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل ، ويصور الولد فى الرحم . قال : يا سفيان ! ما عرفت الله حق معرفته . قلت : كيف تعرفه أنت ؟ قال : بفسخ الهم ، ونقض العزم . وهممتُ ففسخَ همي ، وعزمتُ فنقض عزمى . فعرفت أن لى ربا يدبرنى قلت : فما صلاتك على النبي ﷺ ؟ قال : كنت حاجاً ، ومعى والدتى . فسألتنى أن أدخلها البيت ، ففعلت . فوقعت ، وتورم بطنها ، واسود وجهها . فجلست عندها وأنا

حزين ، فرفعت يدى إلى السماء ، فقلت : يا رب . هكذا تفعل بمن دخل بيتك ؟ فإذا بغمامة ، قد ارتفعت من تهامة ، وإذا رجل عليه ثياب بيض ، فدخل البيت ، وأمرّ يده على بطنها فابيض ، فسكن المرض . ثم مضى ليخرج ، فتعلقت بثوبه ، فقلت له : من أنت الذى فرجت عنى ؟ قال : أنا نبيك محمد الذى تصلى عليه . قلت : يا رسول الله فأوصنى. قال : لا ترفع قدما ، ولا تضع أخرى ، إلا وأنت تصلى على محمد وعلى آل محمد ، ﷺ قلت : كان هذا الشاب من الأولياء الواصلين .

(٢٨)

قال العارف الكبير أبو المواهب الشاذلى : رأيت رسول الله ﷺ ، فقبل فى ، وقال : أقبل هذا الفم الذى يصلى على ألفاً بالنهار ، وألفاً بالليل . ثم قال : وما أحسن (إنا أعطيناك الكوثر) لو كانت وردك بالليل ! ثم قال لى : ويكون دعاؤك : اللهم فرج كرباتنا ، اللهم أقل عثراتنا ، اللهم اغفر زلاتنا . وتصلى على ، وتقول : وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

(٢٩)

قال الشريف محمد النعمانى ـ من أصحاب العارف الكبير الشيخ محمد الحنفى : رأيت جدى رسول الله ﷺ ، فى خيمة عظيمة ، والأولياء يجيئون فيسلمون عليه ، واحداً واحداً . وقائل يقول : هذا فلان ، هذا فلان . فيجلسون إلى جانبه ﷺ . حتى جاءت كبكبة عظيمة ، وخلق كثير ، وقائل يقول : هذا محمد الحنفى . فلما وصل إلى النبى ﷺ أجلسه بجانبه . ثم التفت ﷺ إلى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وقال لهما : إنى أحب هذا الرجل إلا عمامته الصماء ، أو قال الزعراء ، وأشار إلى سيدى محمد الحنفى . فقال له أبو بكر : أتأذن لى يا رسول الله أن أعممه ؟ قال : نعم . فأخذ أبو بكر رضى الله عنه عمامة نفسه ، وجعلها على رأس سيدى محمد ، وأرخى لها عذبة عن يساره ، وألبسها له . فلما قصها على الشيخ محمد الحنفى ، بكى ، وبكى الناس. وقال للشريف محمد : إذا رأيت جدك ﷺ ، فاسأله لى فى أمارة يعلمها من أعمالى . فـــرآه ﷺ بعد أيام ، وسأله الأمارة . فقال له : بأمارة الصلاة التى يصليها على فى الخلوة ، بعد غروب الشمس كل

يوم . وهى : اللهم صل على محمد النبى الأمى ، وعلى آله وصحبه وسلم ، عدد ما علمت ، وزنة ما علمت ، وملء ما علمت : فقال الشيخ الحنفى : صدق رسول الله ﷺ ، وأرخى لعمامته عذبة ، وعمل كل من فى المجلس مثله . وصار إذا ركب ، يرخى العذبة ، وترك الطيلسانَ الذى كان يركب به ، إلى أن مات رحمه الله تعالى . قلت : إرخاء العذبة سنة مأثورة عن النبى ﷺ ، وورد النهى عن الاقتعاط ، وهو التعمم بدون عذبة . وهى متأكدة فى حق كبار العارفين ، لمزيد تعلقهم بالنبى ﷺ ، وشدة تأسيهم به ، فى كل ما يصدر عنه من قول وعمل ، فى العبادات والعادات . لعلمهم أن الله تعالى ، لا يختار لنبيه إلا أكمل الحالات . وأن كل ما يصدر عنه ﷺ ، يقع من الله بعين الرضا والقبول وقد صرح علماء الأصول : أن من فعل أمراً عادياً كان النبى ﷺ يفعله ، كأكلة أو لبسة معينة ، وقصد بفعله الاقتداء به ﷺ . كان مثاباً من هذه الجهة ، واعتبر آتيا بالسنة وممن كان على هذا الحال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، كان شديد التأسى بالنبى ﷺ فى كل شىء ، حتى أنه ـ وهو مسافر فى بعض المرات ـ نزل فى مكان من الطريق ليس محلا للنزول ، فسأل المسافرون معه نافعاً مولاه ، عن سبب نزوله غير المعهود ؟ فأخبرهم بأنه يروى أنه كان مع النبى ﷺ فى بعض أسفاره ، ونزل فى هذا المكان ، وقضى حاجته ، فهو يحب أن يفعل مثله .

(٣٠)

روى أبو سعيد الواعظ فى كتاب (التعبير) عن أبى الوفاء القارى الهروى ، قال : رأيت المصطفى ﷺ فى المنام بفرغانة ، سنة ستين وثلثمائة ، وكنت أقرأ عند السلطان وكانوا لا يسمعون ، ويتحدثون . فانصرفت إلى المنزل مغتما ، فنمت ، فرأيت النبى ﷺ ، كأنه تغير لونه . فقال لى ﷺ : أتقرأ القرآن كلام الله عز وجل بين قوم يتحدثون ولا يسمعون قراءتك ؟ لا تقرأ بعد هذا إلا ما شاء الله . فانتبهت وأنا ممسك اللسان أربعة أشهر ، فإذا كانت لى حاجة أكتبها على الرقاع . فحضرنى أصحاب الحديث وأصحاب الرأى ، فأفتوا بأنى آخر الأمر أتكلمُ . فإنه قال : إلا ما شاء الله ، وهو استثناء . فنمت بعد أربعة أشهر فى الموضع الذى كنت نمت فيه أولا ، فرأيت النبى ﷺ

فى المنام ، يتهلل وجهه . فقال لى : قد تبت ؟ قلت : نعم يارسول الله . قال : من تاب ، تاب الله عليه . أخرجْ لسانك ، فمسح لسانى بسبابته . وقال : إذا كنتَ بين قوم ، وتقرأ كتاب الله ، فاقطع قراءتك ، حتى يسمعوا كلامَ اللهِ . فانتبهت ، وقد انفتح لسانى بحمد الله ومنه .

(٣١)

روى الشيخ أبو حفص عمر بن الحسن السمرقندى ، عن بعض مشايخه ، عن أبيه . قال : سمعت رجلا فى الحرم ، وهو كثير الصلاة على النبى ﷺ ، حيث كان . فى الحرم وعرفة ومنى . فقلت له : أيها الرجل ، إن لكل مقام مقالا . فما بالك لا تشتغل بالدعاء ولا بالتطوع بالصـــلاة ، سوى أنك تصلى على النبى ﷺ ؟ فقال : إنى خرجت من خراسان ، حاجاً إلى هذا البيت . وكان والدى معى . فلما بلغنا الكوفة ، اعتل والدى ، وقويت علته ، فمات . فغطيت وجهه بإزار ، ثم غبت عنه ، وجئت إليه ، فكشفت وجهه لأراه ، فإذا صورته كصورة الحمار . فحين رأيت ذلك ، عظم عندى ، وحزنت حزناً شديداً ، وقلت فى نفسى : كيف أظهر للناس هذا الحال الذى صار إليه والدى وقعدت عنده مهموماً ، فأخذتنى سنة من النوم ، فرأيت فى منامى كأن رجلا دخل علينا ، وجاء إلى والدى ، وكشف عن وجهه ، فنظر إليه ، ثم غطاه ثم قال لى : ما هذا الحزن العظيم الذى أنت فيه ؟ فقلت : وكيف لا أغتم وقد صار والدى بهذه المحنة ؟ فقال : أبشر ، إن الله عز وجل قد أزال عن والدك هذه المحنة ، ثم كشف الغطاءَ عن وجهه ، فإذا هو كالقمر الطالع . فقلت للرجل : بالله من أنت ؟ فقد كان قدومك مباركاً فقال : أنا المصطفى . فلما قال ذلك ، فرحت فرحاً عظيماً . وأخذت بطرف ردائه ، فلففته على يدى . وقلت : بحق الله يا رسول الله الا أخبرتنى بالقصة . فقال : إن والدك آكل الربا ، وإن من حكم الله عز وجل أن من أكل الربا ، أن يحول الله صورته عند الموت ، كصورة الحمار ، إما فى الدنيا ، وإما فى الآخرة . ولكن كان من عادة والدك أن يصلى على فى كل ليلة ، قبل أن يضطجع على فراشه ، مائة مرة . فلما عرضت له هذه من أكل الربا ، جاءنى الملك الذى يعرض على أعمال أمتى ، فأخبرنى بحالة والدك .

فسألت الله ، فشفعني فيه . قال : فاستيقظت ، فكشفت عن وجه والدي ، فإذا هو كالقمر ليلة بدره . فحمدت الله وشكرته ، وجهزته ودفنته . وجلست عند قبره ساعة ، فبينا أنا بين النائم واليقظان ، إذا بهاتف يقول لي : أتعرف هذه العناية التي حفت والدك ؟ ما كان سببها ؟ قلت : لا . قال : كان سببها الصلاة على رسول الله ﷺ .

كيفية الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم ، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد . اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم بارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد ، كما صليت وباركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين ، إنك حميد مجيد . اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم ، وبارك على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك وأهل بيته ، كما صليت على سيدنا إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم صل على سيدنا محمد وعلى أزواجه وذريته كما صليت على آل سيدنا إبراهيم ، إنك حميد مجيد . اللهم صل على سيدنا محمد النبي ، وأزواجه أمهات المؤمنين ، وذريته وأهل بيته ، كما صليت على سيدنا إبراهيم ، إنك حميد مجيد . اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وآل سيدنا إبراهيم ، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وآل سيدنا إبراهيم ، وترحم على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما ترحمت على سيدنا إبراهيم وآل سيدنا إبراهيم . جزى الله عنا سيدنا محمداً ﷺ بما هو أهله .

اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك ، وصل على المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين

والمسلمات . اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي ، اللهم صل على سيدنا محمد وأنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة ، اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين ، وإمام المتقين . وخاتم النبيين ، عبدك ورسولك ، إمام الخير ، وقائد الخير ، ورسول الرحمة ، اللهم ابعثه المقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون . اللهم صل على سيدنا محمد حتى لا تبقى صلاة ، اللهم بارك على سيدنا محمد حتى لا تبقى بركة ، اللهم سلم على سيدنا محمد حتى لا يبقى سلام ، اللهم ارحم سيدنا محمداً حتى لا تبقى رحمة . اللهم صل على سيدنا محمد كما أمرتنا أن نصلى عليه ، وصل عليه كما ينبغى أن يصلى عليه . اللهم صل على سيدنا محمد وأبلغه الوسيلة والدرجة الرفيعة من الجنة اللهم اجعل فى المصطفين محبته ، وفى المقربين مودته ، وفى الأعلين ذكره . اللهم تقبل شفاعة سيدنا محمد الكبرى ، ورفع درجته العليا ، وأعطه سؤله فى الآخرة والأولى ، كما آتيت إبراهيم وموسى . اللهم صل على سيدنا محمد كما تحب وترضى له . اللهم إنى أسألك يا الله ، يا رحمان يا رحيم ، يا جار المستجيرين ، يا أمان الخائفين ، يا عماد من لا عماد له يا سند من لا سند له ، يا ذخر من لا ذخر له ، يا حرز الضعفاء ، يا كنز الفقراء ، يا منقذ الهلكى ، يا منجى الغرقى ، يا محسنّ ، يا مجمل ، يا منعم ، يا مفضل ، يا عزيز ، يا جبار ، يا منير ، أنت الذى سجد لك سواد الليل ، وضوء النهار ، وشعاع الشمس وحفيف الشجر ، ودوى الماء ، ونور القمر ، يا ألله أنت الله لا شريك لك ، أسألك أن تصلى على سيدنا محمد ، عبدك ورسولك ، وعلى آل سيدنا محمد . اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد ، صلاة تكون لك رضاء ، ولحقه أداء ، وأعطه الوسيلة والمقام الذى وعدته واجزه عنا أفضل ما جزيت نبياً عن أمته . وصل على جميع إخوانه النبيين والصالحين، يا أرحم الراحمين .

اللهم صل على سيدنا محمد النبى الأمى ، الطاهر الزكى ، صلاة تحل بها العقد ، وتفك بها الكرب . اللهم صل على سيدنا محمد صلاة تنجينا بها من جميع الأهوال والآفات ، وتقضى لنا بها جميع الحاجات ، وتطهرنا بها من جميع السيئات ، وترفعنا بها أعلى الدرجات وتبلغنا بها أقصى الغايات ، من جميع الخيرات فى الحياة وبعد الممات .

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد ، وهب لنا اللهم من رزقك الحلال الطيب المبارك ما نصون به وجوهنا عن التعرض لأحد من خلقك ، واجعل لنا اللهم إليه طريقاً سهلا من غير تعب ولا نصب ولا منة . ولا تبعة ، وجنبنا اللهم الحرام حيث كان ، وأين كان ، وعند من كان ، وحلْ بيننا وبين أهله ، واقبض عنا أيديهم ، واصرف عنا قلوبهم ، حتى لا نتقلب إلا فيما يرضيك ، ولا نستعين بنعمتك إلا على ما تحبُ ، يا أرحم الراحمين .

اللهم صل على سيدنا محمد كلما ذكره الذاكرون ، وصل على سيدنا محمد كلما غفل عن ذكره الغافلون . اللهم صل على سيدنا محمد عددَ من صلى عليه ، وصل على سيدنا محمد بعدد من لم يصل عليه ، وصل على سيدنا محمد كما أمرت أن يصلى عليه ، وصل على سيدنا محمد كما تحب أن يصلى عليه ، وصل على سيدنا محمد كما تنبغى الصلاة عليه .

اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمى ، وعلى آله وصحبه وسلم ، عدد ما علمتَ ، وزنة ما علمتَ ، وملءَ ما علمت . اللهم صل أفضل صلاة على أفضل مخلوقاتك سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم عدد معلوماتك ، ومداد كلماتك كلما ذكرك وذكره الذاكرون ، وغفل عن ذكرك وذكره الغافلون .

اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الأمى وعلى آله وسلم . اللهم صل صلاة كاملة وسلاماً تاماً على نبي تنحل به العقد ، وتنفرج به الكربُ ، وتقضى به الحوائج ، وتنال به الرغائب . وحسن الخواتيم ، ويستسقى الغمام بوجهه الكريم ، وعلى آله وصحبه .

اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد النبي الأمى وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته ، صلاة تشرح بها صدرى ، وتيسر بها أمرى ، وتجبر بها كسرى ، وتغنى بها فقرى ، وتنور بها قبرى ، وتحل بها عقدة لسانى . اللهم رب الحل والحرام ، ورب البلد الحرام ، ورب الركن والمقام ، ورب المشعر الحرام ، بحق كل آية أنزلتها فى شهر رمضان بلغ روح محمد تحية وسلاماً (يقرأ أربع مرات ليلا عند النوم ، بعد قراءة سورة الملك) اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمى وعلى آله وسلم تسليماً .

اللهم صل على عبدك المكمل ، ورسولك المبجل ، وخليلك المفضل ، سيدنا محمد الذى منحته المقامَ المحمودَ ، والحوض المورود ، وأخذت لأجله على الأنبياء المواثيق والعهود ، مفتاح الكائنات ، وختام النبوات ، ومجلى الأسماء والصفات ، صلاة تفرج عنا بها الكرب ، وتقضى لنا بها الحاجات ، وتفتح لنا بها أبواب القرب ، وتيسر بها أسباب المكرمات ، وعلى آله المطهرين من الأرجاس ، وصحابته المخاطبين بكنتم خير أمة أخرجت للناس ؛ وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

اللهم صل وسلم على عبدك ونبيك ، سيدنا محمد الذى نطق له الحجر وسجد له الشجر ، وانشق بإشارته القمر ، وزال ببركة مسحه عن ذوى العاهات الضرر ، نبع من أصابعه الشريفة الماء النمير ، ونزل بدعائه المطرُ الغزير ، وانزاح بغوثه الكربُ عن الخلق الكثير ، صلاة وسلاماً يكونان سبباً فى كشف كربتنا ، وتفريج غمتنا ، والتعجيل بزوال شدتنا ، اللهم اجعل صلاتنا عليه وسيلة إليك ، واقبل استشفاعنا به لديك ، فإنه رسولك الطاهر المطهر ، وحبيبك الشفيع المشفع هنا وفى المحشر ، وارض اللهم عن آله الطيبين الطاهرين ، وصحابته من الأنصار والمهاجرين .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، صلاة وسلاماً دائمين بدوام توالى أفضالك عليه . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، وإمام المتقين ، وقائد الغر المحجلين ، وشفيع المذنبين . اللهم اجعل شرائف صلواتك ، ونوامى بركاتك ، على سيدنا محمد رسول الخير ، وإمام الهدى ، وعين الرحمة ، ونبى التوبة . اللهم اجعل أفضل صلواتك وأزكاها ، وأجل تسليماتك وأنماها ، على من أرسلته رحمة عامة ، وبعثته نعمة مهداة ، سيدنا محمد الذى شرحت صدره ، ورفعت ذكره ، وقرنت اسمه باسمك ، وجعلت طاعته من طاعتك ، وخلعت عليه من وصفك ونعتك . اللهم إنا نتوسل به إليك ، ونستشفعُ به لديك ، أن تفرج كربتنا ، وأن تقيل عثراتنا وأن تغفر زلاتنا .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد أحب المحبوبين إليك ، وزده شرفاً وكرامة لديك . اللهم صل وسلم صلاة وسلاماً يفوقان العد ، ويجاوزان الحد ، على منتهى الكمالات الإنسانية ، وملتقى التنزلات الإلهية ، سيدنا محمد أصل الوجود ، والوسيلة العظمى فى

وصول الخير إلى كل موجود ، اللهم فرج كرباتنا ببركته ، وارض عن أزواجه وأهل بيته وذريته ، يا رب العالمين . اللهم صل وسلم وبارك على إنسان عين الوجود ، وقطب دائرة الشهود ، سيدنا محمد القاسم لما تفيض على عبادك من أنواع العطاء ، والمخصوص منك بعظيم المدح والثناء . صلاة وسلاماً وبركة تناسب قدره ، وتؤدى عنا شكره . اللهم صل وسلم على من جعلته نبياً وآدم منجدل فى الطين ، ثم أرسلته رحمة للعالمين ، سيدنا محمد صاحب الحنيفية السمحة ، والدين المتين ، وعلى آله وذريته الطاهرين .

اللهم اجعل صلواتك وبركاتك على سيدنا محمد النبى وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته ، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد القائل (الدعاء كله محجوب حتى يكون أوله ثناء على الله تعالى وصلاة على النبى ﷺ ثم يدعو فيستجاب لدعائه) اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الوارد عنه (إذا طنت أذن أحدكم فليصل على وليقل ذكر الله بخير من ذكرنى) اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الوارد عنه (إذا فرغ أحدكم من طهوره فليقل : أشهد أن لا إله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله ثم ليصل على ، فإذا قال ذلك فتحت له أبواب الرحمة) اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الوارد عنه (إذا نسيتم شيئاً فصلوا على تذكروه إن شاء الله تعالى) اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الوارد عنه (زينوا مجالسكم بالصلاة على فإن صلاتكم على نور لكم يوم القيامة) .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الوارد عنه (إنكم تعرضون على بأسمائكم وسيماكم فأحسنوا الصلاة على) اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الذى كان إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم وقال (اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك) وإذا خرج من المسجد صلى على محمد وسلم ثم قال (اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب فضلك) اللهم صل وسلم على سيدنا محمد القائل (لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ولا تجعلوا قبرى عيداً وصلوا على فإن صلاتكم تبلغنى حيثما كنتم) اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الوارد عنه (لا وضوء لمن لم يصل على النبى ﷺ) اللهم صل وسلم على سيدنا محمد القائل (ما من أحد يسلم على إلا رد الله تعالى إلى روحى حتى أرد عليه السلام) .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد القائل (ما من عبد مؤمن يذكرنى فيصلى على إلا كتب الله له عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات) اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الوارد عنه (من الجفاء أن أذكر عند رجل فلا يصلى على) اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الوارد عنه (من سره أن يلقى الله راضياً فليكثر الصلاة على) . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الوارد عنه (من صلى على صلاة كتب الله له قيراطاً والقيراط مثل أحد) اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الوارد عنه (من صلى على يوم الجمعة كانت شفاعة له عندى يوم القيامة) اللهم صل وسلم على سيدنا محمد القائل (من قال حين يسمع المؤذن : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة صل على محمد عبدك ورسولك وأعطه الوسيلة والشفاعة يوم القيامة ، حلت له شفاعتى) .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الوارد عنه (من نسى الصلاة على خطىء طريق الجنة) اللهم صل وسلم على سيدنا محمد القائل (إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه والثناء عليه ويصلى على النبى ﷺ ثم يدعو بعد بما شاء) اللهم صل وسلم على سيدنا محمد القائل (إن لله ملائكة سياحين يبلغونى عن أمتى السلام) .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد القائل (لا يجلس قوم مجلساً لا يصلون فيه على رسول الله ﷺ إلا كان عليهم حسرة وإن دخلوا الجنة لما يرون من الثواب) .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الوارد عنه (من دعا بهؤلاء الدعوات فى دبر كل صلاة مكتوبة حلت له الشفاعة منى يوم القيامة : اللهم اعط محمداً الوسيلة واجعل فى المصطفين محبته وفى العالمين درجته وفى المقربين داره) .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الذى كان على عليه السلام ، إذا وصفه قال : لم يكن رسول الله ﷺ بالطويل الممغط ، ولا بالقصير المتردد ، وكان ربعة من القوم . لم يكن بالجعد القطط ، ولا بالسبط ، كان جعداً رجلا . ولم يكن بالمطهم ، ولا بالمكلثم وكان فى وجهه تدوير . أبيض مشرب ، أدعج العينين ، أهدب الأشفار . جليل المشاش والكتد أجرد . ذو مسربة ، شثن الكفين والقدمين . إذا مشى تقلع كأنما ينحط

فى صبب . وإذا التفت التفت معاً . بين كتفيه خاتم النبوة ، وهو خاتم النبيين . أجود الناس صدراً . وأصدق الناس لهجة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة . من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله . ﷺ تسليماً كثيراً إلى يوم الدين ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

وقع الفراغ منه يوم الجمعة التاسع من شهر جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة وألف هجرية . وقدمته وسيلة بين يدى ، لعل الله تعالى ببركة رسوله وبشفاعته يعجل بتفريج هذه الكربة التى طالت واشتدت ، وليس من يكشفها غيره ، إنه قريب مجيب .

فهرست فضائل النبي

تم الفهرست والحمد لله رب العالمين

فهرست النفحة الإلهية